AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
28 SEP 1972
Tel. 260458

نساء صغیرات

الصور الملونة والرسوم من عمل لويس جامبور
وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بشراء حق نشر الصور من صاحب هذا الحق

Color prints and drawing by Lois Jambor
reproduced by special permission of copyright
owner. Copyright 1947 Crosset and Dunlop.

محتويات الكتاب

صفحة

١٢ – معسكر لورنس ٧

١٣ – قصور فى الهواء ٥١

١٤ – أسرار ٧٤

١٥ – البرقية ٩٦

١٦ – رسائل ١١٥

١٧ – المؤمنة الصغيرة ١٣٢

١٨ – أيام سود ١٤٩

١٩ – وصية آمى ١٦٦

٢٠ – أمور عائلية ١٨٣

٢١ – لورى يصنع الشر وچو تنشر السلام . . . ١٩٧

٢٢ – عودة السعادة ٢٢٣

٢٣ – العمة مايش تحل مشكلة ٢٣٦

الفصل الثانى عشر

معسكر لورنس

كانت بث ، بحكم وجودها فى البيت معظم الوقت ، قد اعتادت أن تقوم بتوزيع البريد على أفراد الأسرة ، وكانت أحب مهمة إليها أن تتوجه إلى صندوق البريد كل يوم ، فتفتح بابه الخشبى الصغير ، ثم تحمل محتوياته إلى صاحباتها .

وفى يوم من شهر يولية دخلت البيت ، وقد امتلأت يداها بما وجدته

فى الصندوق من رسائل ولفافات ، وطافت بأهلها تعطى كلا نصيبه منها ، وكان بين ما تحمله باقة أزهار بعث بها لورى إلى مسز مارش ، على ما اعتاد أن يفعل دائماً ، فوضعتها فى إناء زجاجى حملته إلى حيث تجلس أمها وقالت :

ــ هاك بريدك يا أماه . إن لورى لا ينساه أبداً .

والتفتت إلى ميج ، وكانت تطرز بجوار أمها ، وقالت لها :

ــ جاءك خطاب وفرد قفاز كتب عليه « إلى الآنسة ميج مارش » .

فنظرت ميج إلى القفاز الرمادى ثم قالت :

ــ عجبا ! لقد تركت فى صندوق البريد زوج قفاز ، فلماذا جئتنى بفرد واحد ؟ ألا يحتمل أن تكونى قد أسقطت الثانى فى الحديقة ؟

فقالت بث :

ــ لم يكن فى الصندوق سوى فرد فقط ، وأنا واثقة من ذلك كل الثقة .

قالت ميج :

ــ لا بأس عليك ، وربما وجدنا الآخر فى مكان ما .

وفتحت الخطاب الذى أتتها به بث ، وقرأت محتوياته ثم قالت :

ــ هذه ترجمة الأغنية الألمانية التى كنت قد طلبتها من لورى ، وأغلب الظن أن مستر بروك هو الذى كتبها ، فليس هذا خط لورى .

وتطلعت مسز مارش إلى ابنتها بإعجاب وحنان ، وكانت ميج

تطرز أمام منضدة ازدحمت فوقها كرات الخيط وأدوات التطريز ، وقد تهدلت خصلات شعرها على جبينها المشرق ، فبدت فى ثوب الصباح الأبيض صورة حية للأنوثة والجمال . ولم تشعر الفتاة بما يجول بخاطر أمها ، إذ كانت فى شغل شاغل بتطريزها ، تؤديه فى حماسة واهتمام ، وهى تترنم بأغنية عذبة ، وقد سرح بها خيالها إلى أحلام تحاكى فى براءتها وطهرها ، تلك الأزهار النضيرة التى تزين بها ثوبها . وامتلأت نفس مسز مارش غبطة وسروراً بحسن ابنتها وبراءتها ، فانفرجت شفتاها عن بسمة ملؤها الرضا والاطمئنان .

وبينما كانت مسز مارش غارقة فى تأملاتها ، هرعت بث إلى غرفة المكتبة تبحث عن أختها چو ، فلما وجدتها تجلس فى ركنها المعتاد ، قالت لها ضاحكة :

ـ جاءك كتاب وخطابان ، ثم قبعة عتيقة مضحكة الشكل ، كانت تملأ صندوق البريد وتبرز من جوانبه .

قالت چو :

ـ يا للفتى الماكر ! قلت له إنى أتمنى لو تعود « مودة » القبعات الواسعة ، حتى يمكننى أن أحمى بشرتى من فعل أشعة الشمس التى تحرقنى فى الأيام الصحوة ، فسألنى لماذا أهتم بما يلبسه غيرى ؟ ولم لا أغطى رأسى بقبعة واسعة، ما دمت أشعر بالحاجة إليها ؟ فأكدت له أنى لا أهتم مطلقاً بمثل هذه الاعتبارات النسائية التافهة ، ولو كنت أملك

قبعة واسعة ما ترددت فى الخروج بها على سبيل التفكهة . وها هو ذا يتحدانى فيرسل إلى بواحدة .

ووضعت القبعة على رأس تمثال نصفى فى غرفة المكتبة ، ثم شرعت تقرأ الخطابين ، وكان أحدهما من أمها ، فما إن تلت سطوره المعدودة حتى احمر وجهها تأثراً واغرورقت عيناها بالدموع ، فقد كتبت أمها تقول :

« عزيزتى

يسرنى أن أكتب إليك كلمة صغيرة ، أعبر لك فيها عن مزيد غبطتى وسرورى بما تبذلينه من جهود مشكورة فى ترويض مزاجك الحاد . ورغم أنك لا تتحدثين عن كفاحك فى بلوغ غايتك ، ولا تذكرين شيئاً مما تلاقين من توفيق أو إخفاق ، راضية بإخفاء شجونك وشئونك ، إلا عن صديقك الأوحد ، كتاب النصائح ، الذى تسألينه الهداية فى إخلاص وإيمان ، فقد أمكننى بغير جهد أن أشاهد كفاحك النفسى فى تلك الصفحات التى بليت لكثرة ما قرأتها ، وألمس النتائج الطيبة التى وصلت إليها فى سعيك إلى الارتفاع بنفسك فوق سقطات الغضب والاندفاع ، فسيرى يابنيتى فى جهادك موفقة بإذن الله ، وتسلحى دواماً بالصبر والشجاعة ، وثقى أن أكثر من يشاركك فى وجدانك هى أمك التى يمتلىء قلبها بحبك .

أمك »

وأسندت چو رأسها إلى ذراعيها ، وانهمرت دموع الفرح من مقلتيها على صفحات الكتاب الذى كانت تقرؤه . قالت تحدث نفسها :

ـ كلماتك يا أمى أثمن عندى من ملايين الجنيهات ، وأغلى من أكوام المديح والثناء ، وما دمت إلى جانبى ، فلن أكف عن الجهاد ، ولن ينالنى اليأس بحال من الأحوال .

وكانت تظن أنها تجاهد وحدها ، ولا من يعلم بجهادها أو يقدره ، فلما جاءتها رسالة أمها ، اطمأنت إلى أنها ليست فى هذه الحياة وحدها ، ما دامت تلك العين الرحيمة ترعاها . وقد ضاعف من تأثرها بهذه الرسالة أنها لم تكن تنتظرها أو تتوقعها ، وإن كانت تكن لأمها أخلص الحب والتقدير . ومنحها الخطاب عزيمة جديدة تعينها على قهر شيطان الشر ، فطوته وشبكته بدبوس فى ثوبها ، كتعويذة تقيها من الزلل . وأقبلت على الرسالة الثانية تفضها وهى على تمام الاستعداد لما قد تحويه من خير أو من شر ، ولكن خط لورى الكبير طالعها يقول :

« عزيزتى چو

دعوت بعض أصدقائى وصديقاتى الإنجليز لزيارتى غداً ، وأحب أن نقضى معا وقتاً ممتعاً ، وأملى أن يكون الجو صحواً فنقيم مخيما فى « لونج ميدو » . وسوف نعبر النهر إلى المخيم فى قوارب ، وهناك نلعب الكريكيت ثم نشعل النيران لنطهى طعامنا بأنفسنا على الطريقة البوهيمية .

إنى أرحب بحضوركن جميعاً ، ولن أقبل اعتذاراً من بث ، فطمئنيها

إلى أن أحداً لن يضايقها ، وسيتولى بروك الإشراف على النظام ، وتعنى كات ڤون براحة الفتيات ، وستجدن أن أصدقائى جماعة مرحة طيبة . وأرجو أن لا تحضرن معكن شيئاً ، فقد أعددت كل صغيرة وكبيرة مما نحتاج إليه ، ولست أنشد غير صحبتكن الممتعة ، فلا تخيبن ظنى ، وكن كعهدى بكن زميلات طيبات .

أودعك على كره ، إلى الموعد المضروب

من لورى صديقك المخلص الودود »

وهرعت چو تحمل الخبر المثير إلى ميج ، وصاحت بها تقول :

ــ هكذا تكون الدعوات وإلا فلا ! ولن تمنعينا من الذهاب طبعاً يا أماه ، فسيكون وجودنا عوناً للورى ، فأنا أساعده فى التجديف ، وميج تتولى إعداد الطعام ، وتقوم الصغيرتان بالأعمال الأخرى البسيطة .

سألتها ميج :

ــ أتعرفين شيئاً عن آل ڤون ؟ أرجو أن لا يكونوا من المتغطرسين .

أجابت چو :

ــ كل ما أعرفه عنهم أنهم أربعة من الإنجليز : كات وهى أكبر منك سناً ، ثم التوأمان فريد وفرانك وهما فى مثل عمرى ، أما جريس ففى التاسعة أو العاشرة . لقد قابلهم لورى فى الخارج ، وأعجب بخلق الصبيين ، ولكنى فهمت من التواء شفتيه أثناء حديثه عن كات ، أنه لا يميل إليها .

فقالت ميج فى اغتباط ظاهر :

ــ يسرنى أن ثوبى الفرنسى المنقوش ما زال فى حالة جيدة ، فضلا عن أنه يلائمنى تماماً ، فهل لديك ما ترتدينه يا چو ؟

قالت :

ــ عندى ثوب التجديف الرمادى ، وفيه الكفاية ، فلست أحتاج إلى ثوب منشى ما دمت أنوى أن أستمتع بيوم رياضى .

والتفتت إلى بث تسألها :

ــ أتأتين معنا يا بث ؟

أجابت :

ــ نعم ، ولكن بشرط أن لا يبادلنى الحديث أحد من الفتيان .

قالت :

ــ لن أسمح لهم بذلك .

فقالت بث :

ــ أحب أن أفعل كل ما يسر لورى ، ولست أخشى مستر بروك فهو رجل طيب ، ولكنى أكره أن ألعب أو أغنى أو أتكلم فى حضرة الغرباء . سأقوم بنصيبى من العمل كاملا ، ولن أضايق أحداً . وما دمت تعنين بى يا چو فلا أرى مانعاً من الذهاب .

قالت چو :

ــ هذا كلام جميل ، وهكذا تحاربين خجلك ، وتعجبنى فيك

تلك الرغبة الشديدة فى التغلب على ضعفك ، فليست المعركة بين المرء وأخطائه بالأمر الهين ، والتشجيع يمنحنا قوة على الكفاح .

وسارت چو إلى أمها ، فطبعت على خدها الضامر ، قبلة عامرة بالشكر ، وقالت :

ــ شكراً لك يا أماه .

ولو عاد الشباب لمسز مارش ما اغتبطت به مثلما اغتبطت بقبلة ابنتها المحبة .

قالت آمى وهى تبرز ما جاء به البريد إليها :

ــ أما أنا فقد وصل إلىّ صندوق من الشيكولاته ، وصورة أود أن أنسخها .

قالت بث ، وكانت صداقتها مع مستر لورنس العجوز قد توطدت :

ــ وأنا تلقيت بطاقة يدعونى فيها مستر لورنس أن أعزف له الليلة ، ويسرنى أن ألبى دعوته .

نهضت چو تستبدل القلم بالمكنسة وتقول :

ــ هيا بنا نؤد عمل اليوم وغد ، حتى نذهب إلى الرحلة وليس بنا ما يشغلنا أو يقلق بالنا .

وفى صبيحة اليوم التالى أرسلت الشمس أشعة صافية تنبىء بيوم صحو جميل ، وتسللت الأشعة إلى غرفة الفتيات ، فكشفت عن منظر

طريف : فقد كانت كل واحدة منهن قد استعدت للرحلة المرتقبة بطريقتها المميزة ، فزمت ميج رأسها بخصلات ملفوفة ، ودبابيس مجعدة للشعر ، وطلت چو وجهها بطبقة كثيفة من دهان مرطب للجلد ، واحتضنت بث دميتها چوانا طول الليل لتعوضها عن فراق اليوم الطويل ، أما آمى فقد ضغطت أنفها بمشبك من مشابك الرسم ، حتى تلتم فرطحته ويبدو صغيراً جميلا أمام ضيوف لورى . وكأن منظر الفتيات قد سر الشمس وأضحكها ، فأضاءت أشعتها الحجرة ، وعندئذ استيقظت چو من نومها العميق ، وقامت إلى أخواتها تستحثهن على النشاط ، فلما رأت ما فعلته آمى بأنفها انطلقت تضحك عالياً .

وكانت الشمس المشرقة والضحكات السعيدة فألا حسناً يبشر بيوم سعيد ، فسرعان ما دبت الحركة ونشطت فى المنزلين . وكانت بث أول من ارتدت ملابسها ، فوقفت خلف النافذة ترقب ما يحدث فى البيت الآخر ، وتنقل الأخبار إلى أخواتها فى عبارات مرحة مقتضبة وجعلت تقول :

— هذا رجل يحمل خيمة . . . أرى مسز باركر ترتب الطعام فى سلة كبيرة . . . . ها هو ذا مستر لورنس يتأمل السماء ويدرس اتجاه الرياح . . . فليته يأتى معنا . . . كم يبدو لورى أنيقاً فى ملابس البحارة ! . . . أقبلت عربة ملأى بالأشخاص : سيدة طويلة ، وفتاة صغيرة ، وصبيان فظيعان . . . يا للمسكين ! إن أحدهما أعرج ، وفى

يده عصا يتوكأ عليها . . . إنى أرى ند موفات أيضاً . . . انظرى يا ميج ، أليس هذا هو الرجل الذى حياك يوماً عندما كنا فى السوق ؟

وأسرعت ميج إلى النافذة تطل منها وتقول فى اغتباط :

ـ إنه هو ، ويدهشنى أن حضر ، فقد سمعت أنه مسافر إلى الجبال . . . . وهذه سالى أيضاً ، يسرنى أن عادت فى الوقت المناسب .

والتفتت إلى أختها تقول :

ـ اصدقينى القول يا چو ، هل أبدو على ما يرام ؟

قالت چو :

ـ كأنك زهرة يانعة ، ولكن ارفعى ثوبك قليلا ، وأصلحى وضع قبعتك ، فلست أراها مستقرة على رأسك ، وأخشى أن يطير بها الهواء . والآن هيا بنا . . .

وتناولت چو القبعة العتيقة الواسعة ، التى كان لورى قد بعث بها إليها على سبيل المزاح ، فوضعتها على رأسها ، وثنت طرفها بشريط أحمر ، فصاحت بها ميج تقول فى احتجاج شديد :

ـ لا . . .لا. . . يا چو ، لا يصح أن تلبسى هذه القبعة ، إنها قبيحة المنظر مضحكة ، وشكلك فيها كالفتى !

قالت چو ، وهى تنصرف عن الغرفة مطمئنة :

ـ وهل يضيرنى أن أبدو كالفتى ؟ لا يهمنى أن تكون القبعة جميلة

استقل الفتيان والفتيات قاربين ودلفوا بهما إلى النهر

الشكل أو قبيحته ، ويكفينى منها أنها تحمينى من الشمس ولا تثقل رأسى .

وخرج الأخوات الأربع جنباً إلى جنب ، وكأنهن باقة من الورود البشرية اليانعة ، وكن يرتدين ثياباً صيفية أنيقة ، وقد فاضت وجوههن التى تظللها القبعات بأبلغ أمارات السعادة والاغتباط .

واستقبلهن لورى مرحباً ، وقدمهن إلى أصدقائه فى أدب واحترام ، فلما انتهت مهمة التعارف ، جلسن مع الضيوف الآخرين على المرج الأخضر ، الذى استعاض به صاحب الدار عن غرفة الاستقبال . وشعرت ميج بمزيد من الراحة والاطمئنان عندما شاهدت مس كات ، وكانت فى العشرين من عمرها ، ترتدى ثياباً أمريكية بسيطة ، ولكنها أدركت لفورها لماذا التوت شفتا لورى عندما كان يتحدث عنها إلى چو ، فقد كانت الفتاة متكبرة متغطرسة ، فيها غرور لا يتفق مع ما عرف عن بنات لورنس من تواضع مستحب . واكتملت سعادة ميج بوجود ند موفات ، وأثلج صدرها قوله لها بأنه لم يحضر إلا من أجل رؤيتها .

ووجدت بث بعد أن راقبت الفتيان بعض الوقت أن الصبى الأعرج لطيف المعشر ، وليس فظيعاً كما تراءى لها وهى تطل من نافذتها . وكان ضعيفاً بعاهته فاستقر رأيها أن تكون صديقة له ، وأن ترعاه طوال الرحلة برفق وحنان . أما آمى فقد رأت فى جريس فتاة مهذبة مرحة ، فتبادلت

وإياها النظرات ،وسرعان ما تآلف قلباهما وأصبحتا صديقتين.

وكانت الخيام وسلال الطعام وأدوات لعبة الكريكيت قد سبقت المدعوين إلى المعسكر ، فلما اكتملت الجماعة ، استقل الفتيان والفتيات قاربين ، ودلفوا بهما إلى النهر معا ، تاركين مستر لورنس العجوز على الشاطئ يودعهم ملوحاً بقبعته . وتولى لورى وچو التجديف فى أحد القاربين وتولى مستر بروك وند القارب الثانى ، أما فريد التوأم الثائر فقد جعل يضرب الماء بيديه على غير هدى حتى كاد يقلب القارب بمن فيه . وحازت قبعة چو إعجاب أصدقائها وصديقاتها ، وأدت خدمات جليلة كان لها أثرها فى نجاح الرحلة . وكان من أفضال هذه القبعة ، أنه عندما دخلت بها چو إلى الضيوف لأول مرة انفجروا فى عاصفة شديدة من الضحك ، كانت بداية طيبة لإزالة التوتر ورفع الكلفة وكذلك كانت حركاتها وانثناءاتها مع الهواء كلما جدفت چو مثاراً للمزاح والتسلية .

ودهشت كات لأسلوب چو فى الحديث ، وعجبت عندما رأت لورى يطأ قدمها خطأ فيعتذر إليها قائلا : « فتاى العزيز .. هل آذيت قدمك ؟ » ، ولكن قلبها مال إليها لغرابة أطوارها ومهارتها ، فاستقر رأيها أن تكون صديقة لها ، ومن ثم جعلت تبتسم لها فى كل فرصة ممكنة .

وكانت ميج تجلس فى نهاية القارب الآخر ، وفى مواجهتها

يجلس المعجبان بها ، يتأملان جمالها ويجدفان فى حماسة ومقدرة . وكان مستر بروك شاباً هادئ الطبع متزناً ، له عينان عسليتان وصوت متئد رخيم ، وكانت ميج تعجب بخلقه الكريم ، وتعتبره موسوعة علمية ثمينة . وبالرغم من أنه جلس أمامها صامتاً ، لا يبادلها الحديث إلا قليلا ، فقد ظلت نظراته عالقة بوجهها ، لا تتحرك عنه كأنه لا يرى فى القارب غيرها . وكان ند موفات قد التحق بالجامعة أخيراً . فاختار أن يتشبه بالفرنسيين فى أخلاقهم وأحوالهم ، ولاءمه هذا التشبه ، فكان رفيقاً مؤنساً ، رغم تفاهة عقله . أما سالى جاردنر فلم يك يعنيها سوى المحافظة على ثوبها الأبيض الأنيق ، وظلت تثرثر مع فريد الذى أرسل الرعب فى قلب بث ، من جراء حركاته العنيفة وقفزاته الخشنة .

ولم تكن المسافة إلى لونج ميدو طويلة ، فسرعان ما وصل المركب إلى الوجهة المنشودة ، فوجدوا أن الخيمة قد نصبت ، وأطواق الكريكيت غرست فى الأرض استعداداً للعب ، وكان المعسكر جميلا فسيحاً ، اكتست أرضه ببساط سندسى تظله ثلاث أشجار بلوط كبيرة فى الوسط ، ويمتد فيه شريط ناعم من العشب للكريكيت . وقفز الضيوف من القاربين إلى الشاطىء ، وهم يهللون فى سرور ، فقال لهم لورى :

— مرحباً بكم فى معسكر لورنس . إن بروك قائد هذا المعسكر ، وأنا أركان حربه ، وبقية الفتيان ضباطه ، أما السيدات فضيوفنا . وقد نصبنا الخيمة خصيصاً لراحتكم . ستكون قاعة الاستقبال فى ظل

الشجرة ، وتحت الشجرة الأخرى مخزن المؤن والحاجات ، والمطبخ فى ظل الشجرة الثالثة . وأقترح أن نلعب مباراة فى الكريكيت قبل أن تشتد حرارة الشمس ، وعندما ننتهى منها ننظر فى أمر الطعام .

وجلس فرانك وبث وآمى وجريس على الحشائش لمشاهدة اللاعبين ، واختار مستر بروك ميج وكات وفريد زملاء له ، كما اختار لورى سالى وچو وند ، وبدأ الإنجليز اللعب بداية حسنة ، ولكن الأمريكيين لم يلبثوا أن تفوقوا عليهم خطوة خطوة ، كأنما قد عادت إليهم روح الكفاح التى نصرت شعبهم على الإنجليز عام ١٨٧٦ . وتعكر الجو بين چو وفريد ، فقد ضربت الفتاة آخر كرة لها فغاظها أن أخطأت الهدف . وضرب الفتى كرته فحادت عن الخط الصحيح مسافة صغيرة ، ولكن الفتى أسرع وراءها ليتتبع سيرها عن قرب ، وكان الهدف بعيداً عن اللاعبين ، فانتهز هذه الفرصة ودفع الكرة بقدمه دفعة خفيفة وجهتها التوجيه الصحيح. وهنا صاح قائلا وهو يلوح بصولجان اللعب :

ــ لقد أصبت الهدف يا مس چو ، وبهذا أبدأ الدور قبلك .

قالت الفتاة فى حدة :

ــ بل أنا التى أبدأ قبلك ، فقد رأيتك تدفع الكرة بقدمك .

قال :

ــ أؤكد لك أنى لم أحركها ، ولعلها تدحرجت قليلا من تلقاء ذاتها ، فابتعدى من فضلك ، ودعينى أكمل دورى .

فقالت غاضبة :

ـ امض فى اللعب إن شئت ، ولكننا لا نعرف الغش فى أمريكا .

فقال وهو يزيح كرتها بعيداً :

ـ بل الأمريكيون أكثر الناس خديعة وغشاً !

وفتحت چو فمها ، وازدحمت الشتائم المقذعة على لسانها ، ولكنها أمسكت عن الكلام فى الوقت المناسب ، وقد احتقن وجهها غضباً وثورة .

وبينما مضى فريد فى اللعب حتى انتهى من الشوط ، ظلت چو فى مكانها تضرب الأرض بصولجانها ، وفى يدها رجفة تدل على بالغ حنقها . وأعلن فريد انتصاره فى زهو وفخار ، فابتعدت چو متظاهرة بالبحث عن كرتها ، وغابت لحظات تضرب فى المرج على غير هدى ، حتى إذا سكن جأشها ، عادت إلى إخوانها هادئة . وبدأ شوط جديد ، فضاعفت چو جهودها لتسترد مكانتها ، فلما حالفها الحظ ، وأوشكت أن تنتهى منتصرة ، صاح فريد يقول لأخته منفعلا :

ـ لم يبق لها إلا كرة واحدة ثم تنتصر ، لقد خسرنا الدور يا كات وانتهى أمرنا .

وألقت چو على الفتى نظرة جعلت دماء الخجل تتصاعد إلى وجهه وقالت :

ـ إن للأمريكيين أساليب فى التسامح مع خصومهم ، خصوصاً إذا كانت الهزيمة نصيب هؤلاء الخصوم !

وقذف لورى قبعته فى الهواء احتفالا بالنصر ، ثم عاد فتذكر أنه ليس من حسن الأدب أن يحتفل بهزيمة ضيوفه ، فحبس صيحات الفرح فى فمه ، وهمس فى أذن صديقته يقول :

ـ أحسنت فى تأديبه يا چو ، فقد رأيته يغش ، بيد أنى لم أتكلم تأدباً ، ولكنك لقنته درساً لن ينساه ، وأعتقد أنه لن يعود إلى الخديعة مرة أخرى .

واقتربت ميج من أختها چو وتظاهرت بأنها تعينها على إصلاح هندامها ، وهمست فى أذنها قائلة :

ـ لقد كان سلوكه مشيناً ، ولكنك احتفظت بسلوكك ، ولم تطلقى العنان لغضبك ، وأنا فخورة بك يا چو :

فقالت چو وهى تعض على شفتها فى غيظ وتسترق النظر إلى غريمها فريد :

ـ لا تمدحينى ، فما زالت مراجل الغضب تغلى فى صدرى ، وبودى لو استطعت أن أعرك أذنه مؤدبة ، لست أدرى كيف كان ينتهى الموقف لو لم أبتعد عنه متظاهرة بالبحث عن كرتى .

قال مستر بروك وهو يتطلع إلى ساعته :

ـ حان وقت الغداء ، فهيا يا أركان الحرب إلى النار توقدها ،

ولا تنس أن تحضر لنا ماء . أما أنا فسأعد مائدة الطعام ، وسأطلب إلى مس مارش ومس سالى أن تساعدانى فى هذا العمل ، من منكم يتقن عمل القهوة ؟

قالت ميج فخورة بأن تزكى إحدى أخواتها :

– ليس من يصنع القهوة مثل چو .

وهكذا أتيح لچو أن تستفيد بدروس الطهى التى تلقتها فى المدة الأخيرة ، فقامت إلى القهوة تعدها ، وتطوع معظم أفراد المعسكر لمعونتها ، فأتاها الصغار بحطب للوقود ، وحمل لها الكبار ماء من الينبوع ، وعكفت مس كات على لوحاتها ترسم المناظر الخلابة التى تراها حولها ، وانشغل فرانك بالحديث مع بث التى جعلت تجدل من فروع الأشجار وأوراقها صحوناً للطعام . وسرعان ما هيأ القائد بمعونة مساعديه مائدة للطعام بديعة الترتيب ، رصت فوقها المأكولات والمشروبات وقد زينت بأوراق الأشجار الخضر . وعندما انتهت چو من إعداد القهوة ، جلس الضيوف إلى المائدة يأكلون فى حماسة وهمة ، لأن الشباب لا يعرف سوء الهضم إلا نادراً .

وكانت الوليمة مرحة عامرة بأسباب البشر والسرور ، وقد تخللتها عواصف الضحك مرات كثيرة ، حتى انزعج الحصان الذى كان يرعى الحشائش على مقربة من الجماعة . وتتوالى الأحداث الصغيرة المضحكة ،

لتضاعف مرح الفتيان والفتيات ، فتسقط الحشرات فى أكواب اللبن ، ويأكل النمل الأسود من الحلوى دون أن يدعى إلى الوليمة ، وتنحدر بعض الديدان من أفرع الشجرة لتستطلع ما يجرى تحتها . ومن وراء السياج القريب ، وقف ثلاثة أطفال يسترقون النظر إلى الآكلين فى ظل الدوحة الباسقة ، ومن الضفة الأخرى للنهر ظل كلب عنيد يحتج فى نباح ملح مستمر . قال لورى مازحاً ، وهو يعطى چو صحناً من الفراولة ، ويذكرها بما فعلته يوم وليمتها المشهورة .

ـ إذا كنت تفضلين الفراولة بالملح فلدينا ملء علبة منه .

قالت وهى تلتقط عنكبين غرقاً فى القشدة المخفوقة :

ـ شكراً لك ! إنى أفضل الفراولة بالعناكب ، ولست أرى من اللياقة أن تذكرنى بأكلتى البشعة ونحن أمام هذه الوليمة الفاخرة .

وكانت الصحون النظيفة قد نفدت ، فجعل الاثنان يأكلان الفراولة من صحن واحد .

وبعد أن انتهى الأصحاب من تناول الطعام ، شعر لورى أن أبهج ما فى اليوم قد مضى ، فقال لچو :

ـ كان يوماً فريداً فى متعته ، والفضل لك ولميج وبروك ، فلولاكم ما نجحت النزهة كل هذا النجاح ، ولكنى أخشى ، وقد انتهينا من تناول الطعام ، أن لا نجد ما نفعله خلال الساعات الباقية .

قالت :

ـ أقترح أن نقوم ببعض الألعاب المسلية ، وقد أحضرت معى لعبة المؤلفين ، ولكنى أفضل أن تستطلع رأى مس كات ، فلعلها ترشدنا إلى لعبة جديدة . اذهب إليها واسألها ، ورأيى أن تبقى بجانبها بعض الوقت ، فهى فتاة لبقة بارعة ، ومن واجبك كمضيف أن تعنى بها وتجاملها .

قال :

ـ أولست بدورك لبقة بارعة ؟ لقد تركتها لبروك ، ولكنه انصرف عنها إلى ميج ، فقنعت بأن تنظر إليهما من خلال نظاراتها المضحكة ، ولكنى سأذهب إليها على كل حال لأننى أعرف واجبى ، ولست فى حاجة إلى نصائحك .

وقد أصابت چو فى حدسها ، إذ كانت مس كات تعرف ألعاباً جديدة طريفة ، فلما أبى الفتيات مزيداً من الطعام ، ولم تتسع بطون الفتيان لمزيد منه ، انتقلوا إلى مكان الجلوس تحت شجرة البلوط ، ليستمعوا إلى مس كات ، وهى تشرح لهم لعبة « القصة » ، قالت :

ـ إنها لعبة لطيفة ، وإذا أحسنا القيام بها اجتمعت لنا قصة كبيرة مملوءة بالحوادث المحزنة والمواقف المضحكة . والطريقة أن يبدأ أحدنا بقصة ما ، فيروى لنا ما يعن له من حوادثها ، فإذا وصل إلى موقف مثير ، سكت فجأة ، وترك لمن يجلس بجانبه أن يمضى بها من حيث انتهى ، وهكذا تستمر القصة ، كل يروى جزءاً منها بطريقته الخاصة ، حتى

تنتهى بانتهاء اللاعبين .

ثم التفتت إلى بروك وقالت له فى لهجة آمرة ، أدهشت ميج التى كانت تكن له كل تجلة واحترام :

— هيا ابدأ يا مستر بروك .

وكان مستر بروك يرقد على الحشائش عند أقدام الفتاتين ، فلم يتحرك من مكانه ، وبدأ يروى القصة ، وقد اتجهت عيناه العسليتان الجميلتان نحو صفحة النهر التى تلمع تحت أشعة الشمس المشرقة . قال :

— يحكى أن فارساً فى قديم الزمان ، خرج يبحث عن الحظ والمال ، وليس معه سوى سيفه ودرعه . وتلقفته الصعاب ثمانية وعشرين عاماً ، قضاها فى السفر والترحال ، ثم قادته قدماه ذات يوم إلى قصر ملك طيب القلب ، يقتنى جياداً كثيرة من بينها مهر جميل عنيد استعصى عليه قياده ، فرصد مكافأة لمن ينجح فى ترويضه . وقبل الفارس أن يجرب حظه مع المهر العنيد طمعاً فى المكافأة . وكان من حسن حظه أن استأنس إليه الجواد وأسلس له قياده ، فكان يمتطيه كل يوم ليدربه ، ويسير به فى طرق المدينة ، وهو يقلب النظر حوله باحثاً عن وجه جميل ، طالما داعب أحلامه . وبينما كان يتروض بالمهر ذات يوم ، فى درب هادئ بعيد ، رأى الوجه الذى ينشده يطل عليه من نافذة قلعة خربة ، فاستخفه الفرح ، وراح يسأل الناس عن سكان هذه القلعة .

فقالوا له : إنهن أميرات سجينات ، ضرب حولهن نطاق من السحر لا خلاص منه إلا بفدية كبيرة ، ولذلك يقضين الأيام فى الغزل والنسج ، حتى يجتمع لهن مال الفدية المطلوبة . وكان بود الفارس أن يحرر السجينات ، ولكنه كان فقيراً ، لا يملك مالا كثيراً أو قليلا ، فقنع بمتعة النظر ، وظل يمر بالقلعة كل يوم ليمتع عينيه بمرأى الوجه الجميل . وأخيراً اعتزم أن يدخل القلعة ، ليعرض خدماته على سجيناتها ، فطرق الباب الذى ما لبث أن انفتح عن . . .

وسكت بروك فجأة ، فمضت كات بالقصة دون تردد ، قالت :

— وما لبث الباب أن انفتح عن سيدة رائعة الجمال . عندما رأته يقف أمامها صاحت به قائلة : « ها أنت ذا قد جئت أخيراً ! » . قال الكونت جوستاف وهو يركع أمامها : « إنها حبيبتى » ، فمدت إليه يداً مرمرية تعينه على النهوض وقالت : « قم أيها الفارس ! » فقال : « لن أقوم حتى ترشدينى كيف أنقذكن » . قالت : « لن تستطيع إنقاذى واأسفاه ! فقد كتب علىّ حظى العاثر أن أبقى هنا حتى يهلك الطاغية الذى سحرنى » قال : « وأين هذا الوغد ؟ » قالت : « فى البهو الأرجوانى ، فاذهب إليه ياذا القلب الشجاع ، وأنقذنى من شروره وآثامه » . قال : « سألبى رغبتك يا أميرتى وأذهب إليه لأنتصر عليه أو أموت بيده » . واندفع الفارس متحمساً نحو البهو الأرجوانى ، فلما وصل إلى بابه فتحه على مصراعيه ، وما كاد يخطو خطوة إلى الأمام ، حتى تلقى . . .

وسكتت مس كات عن الرواية فجأة ، فقال ند :

ــ ضربة قاصمة من هراوة ضخمة ، قذفه بها عجوز يرتدى جلباباً أسود ، ولكن سرعان ما استرد صديقنا صوابه ، فهجم على الطاغية ، وحمله بين يديه ، وقذف به من النافذة ؛ ثم ارتد عائداً إلى أميرته ، وقد تورم جبينه من أثر الضربة ، فإذا به يجد أن باب البهو الأرجوانى قد أقفل عليه ، وانسدت أمامه مسالك العودة ، فجدل من الستائر سلماً يعينه على النزول من النافذة إلى الطريق . وما إن توسط المسافة نحو الأرض حتى انقطع السلم ، فهوى الفارس فى خندق يبلغ عمقه عشرين متراً ، وغاص رأسه فى مياهه الآسنة ، ولكن سرعان ما تغلب على محنته ، فطفا فوق سطح الماء ، وظل يسبح حول القلعة ، حتى وجد باباً صغيراً يحرسه جنديان سمينان ، فانقض على رأسيهما وضرب الواحد منهما بالآخر فكسرهما إلى قطع صغيرة . وضرب الباب بكتفه الهرقلية ، فتحطم لأول ضربة ، وتناثرت شظاياه . ثم دخل الفارس إلى دهليز مظلم تسعى على أرضه المتربة هوام طول الواحد منها مثل قبضة اليد ، وعناكب يرتجف لضخامتها قلب مس مارش ، وقادته قدماه إلى سلم عتيق ، ولما صعد إلى آخر درجاته طالعه منظر يجمد له الدم فى العروق ، فقد رأى . . . .

وسكت ند فجأة . فقالت ميج :

ــ شبحاً طويلا ، تغطيه ثياب بيضاء فضفاضة ، وقد أسدل على وجهه نقاباً ، وأمسك بيده مصباحاً . وأشار الشبح إلى الفارس ليتبعه ،

وتقدم إلى الأمام كأنه يسبح فى الهواء ، ومن خلفه سار الفارس فى درب مظلم بارد ، تقوم على جانبيه تماثيل تلبس دروعاً حديدية ، وكان السكون شاملا ، والبرد قارساً ، والمصباح يبعث فى الدرب نوراً خافتاً ، وبين حين وحين كان الشبح يلتفت إلى الفارس ، فتلمع عيناه المخيفتان من وراء قناعه الأبيض . وأخيراً وصل الاثنان إلى باب أسدلت فوقه الستائر ، وانبعثت من ورائه أنغام موسيقية عذبة ، فتقدم الفارس نحو الباب مندفعاً ، ولكن الشبح رده إلى الوراء مهدداً ، ثم قدم له . . . .

وسكتت ميج ، فاستطردت چو تقول فى لهجة حزينة :

ـ ثم قدم له علبة سعوط ، فشكر الفارس الشبح ، وأخذ قليلا من السعوط بين أصبعيه واستنشقه ، فعطس سبع عطسات ، انفصل لشدتها رأسه عن جسده ، واسترق الشبح النظر من ثقب الباب إلى السيدة التى كانت تغزل وتنسج لتدفع فديتها ، ثم قهقه عالياً ، وأخذ جثة الفارس ، ووضعها فى صندوق كبير ، مع إحدى عشرة جثة أخرى لفرسان بلا رءوس . وفجأة شرع الفرسان جميعاً فى . . . .

وتوقفت لتلتقط أنفاسها ، ولكن فريد ظن أنها انتهت من روايتها ، فقال متحمساً :

ـ شرع الفرسان جميعاً فى رقصة بديعة ، فإذا بالقلعة تنقلب إلى سفينة حربية ، ملأ الهواء شراعها ، فسارت تشق عباب البحر مسرعة . ورأى ربانها سفينة القرصان تقترب يرفرف عليها علم أسود ، فصاح

فى رجاله يقول : « انشروا الشراع الأكبر ، وحولوا الدفة ، واحشوا المدافع والزموا أماكنكم ، وقاتلوا لتنتصروا أيها الأبطال » . وبدأت معركة هائلة انتصرت فيها السفينة الحربية ، وأسرت القرصان بعد أن قتلت رجاله ، وصاح القبطان يقول لمساعده : « دع هذا الوغد يكتب اعترافاً بما اقترفت يداه ، وعليك بتعذيبه إن توانى عن كتابته » . ولكن القرصان أبى أن يعترف بجريرته ، ثم غافل مساعد القبطان ، وقفز إلى البحر ، وغطس تحت السفينة ، وفتح فى قاعها ثقباً كبيراً ، فغرقت لتوها . . . .

وسكت فريد فجأة ، فصاحت سالى وقد حل دورها وهى على غير استعداد :

— يا إلهى ، ماذا أقول ؟ . . . ماذا أقول ؟

ولكنها لم تلبث أن تغلبت على حيرتها وقالت :

— وغاصت السفينة إلى قاع البحر ، فاستقبلتها حورية بحرية بكل ترحاب ، وما إن رأت الحورية الصندوق الكبير ، وما حوى من فرسان بلا رءوس ، حتى استبد بها الحزن عليهم ، وأخذتها الشفقة بهم ، ورأت أن تحتفظ بهم حتى تحين لها الفرصة فتعرف قصتهم ، فغمرت الجثث بمزيج من الماء والملح والخل . وكانت تعتزم أن تنقل الصندوق إلى سطح الماء ، لتعيد الحياة إلى الفرسان المساكين ، ولكنها عجزت عن حمله وحدها ، فتركته فى قاع البحر حتى تجد من يعينها على نقله .

وحدث ذات يوم أن غاص أحد الصيادين إلى القاع يبحث عن اللؤلؤ ، فقالت له الحورية : « هذا الصندوق مملوء باللؤلؤ ، فهو لك إن استطعت أن تحمله إلى الشاطئ » . وفرح الصياد بالصندوق فرحاً شديداً ، وحمله إلى الشاطئ بعد عناء شديد، ولكن صدمته كانت بالغة عندما وجد فيه جثثاً بدل اللآلئ ، وترك الصياد الصندوق فى حقل فسيح ، حيث عثرت عليه . . . .

وسكتت سالى ، فقالت آمى :

– حيث عثرت عليه فتاة ترعى مائة إوزة ، فلما رأت الفتاة الفرسان، حزنت عليهم كل الحزن ، وسألت عجوزاً حكيمة كيف تنقذهم مما أصابهم ، فأجابت العجوز : « سلى الأوز يخبرك بما تريدين » . وسألت الفتاة الأوز عما يصلح رءوساً للفرسان بدل رءوسهم الطائحة ، ففتحت الأوزات مناقيرها وصاحت . . . .

وسكتت آمى ، فقال لورى :

– عليك بالكرنب ! فقالت الفتاة : « صدقت يا أوزاتى » ، ثم هرعت إلى حديقتها تجمع خير كرنباتها ، ووضعت واحدة منها مكان كل رأس من رءوس الفرسان . فإذا بهم يبعثون إلى الحياة مرة أخرى ، وبعد أن شكروا الفتاة على حسن صنيعها ، مضوا إلى حال سبيلهم ، وهم لا يدركون الفارق بين رءوسهم الأولى ورءوس الكرنب ، شأنهم فى ذلك شأن كثيرين من ذوى العقول الفارغة . أما فارسنا فقد عاد يبحث

عن حبيبته ، فعلم أن الأميرات الأسيرات اشترين حريتهن وتزوجن جميعاً إلا واحدة منهن . وقلق الفارس لما سمع ، وأراد أن يعرف حقيقة ما حدث ، فامتطى صهوة جواده الذى لازمه فى سرائه وضرائه ، واندفع يجرى به نحو القلعة ، حتى وصل إلى أسوارها العالية . وأطل من فوق الأسوار ، فرأى حبيبته تقطف الأزهار فى حديقتها ، فقال لها : « أعطينى وردة ! » . قالت له بصوت حنون : « تعال وخذها ، فليس من اللائق أن أذهب إليك » . وقام إلى السور يتسلقه ، ولكن السور بدأ يزيد ارتفاعاً ، فحاول أن يدفعه ، فازداد ضخامة وسمكاً ، وأخيراً استطاع صاحبنا أن يحفر فجوة صغيرة فيه ، أطل منها برأسه ، وقال يتضرع لحبيبته : « دعينى أدخل . . . دعينى أدخل » . ويبدو أن الأميرة لم تسمع رجاءه ، فقد جمعت أزهارها ، وانصرفت عنه بهدوء إلى قلعتها . . .

وأشار لورى إلى فرانك وقال :

ـ أما ما حدث بعد ذلك ، فهذا ما سيقصه علينا صديقنا فرانك .

قال فرانك وقد شعر بعظم مسئوليته فى إنقاذ بطلى القصة من مأزقهما العاطفى :

ـ لا . . . لا يمكننى . . . لست مشتركاً معكم فى هذه اللعبة .

وكانت جريس قد استغرقت فى النوم ، وتوارت بث خلف چو ، فلم يبق من يسير بالقصة إلى نهايتها .

قال بروك ، وما زال يتأمل صفحة النهر القريب ، ويداعب بأصابعه

زهرة برية مثبتة فى عروة سترته :

– وهل يصح أن نترك الفارس المسكين محشوراً فى السياج ؟

فابتسم لورى ، وقذف رائده ببعض الحشائش مداعباً ، ثم قال :

– أغلب الظن أن الأميرة أعطته باقة من أزهار حديقتها ، وفتحت له باب القلعة على مصراعيه .

وضحك الأصدقاء لسخافة القصة التى ألفوها من وحى ساعتهم ، وقالت سالى :

– إننا فى حاجة إلى بعض المرانة ، وإذا مارسنا هذه اللعبة مرات ، فلن يصعب علينا أن نؤلف قصصاً بارعة .

والتفتت إلى ميج تسألها :

– أتعرفين « الصدق » ؟

أجابت ميج وقد أخذت الكلمة بمعناها الحرفى :

– أرجو ذلك .

قالت سالى مستدركة :

– إنى أقصد لعبة « الصا ق » .

قال فرانك :

– وكيف نلعبها ؟

قالت :

– نكتب أرقاماً على قصاصات صغيرة ، ونخلطها فى إناء أو قبعة ،

ثم نختار رقماً معيناً من الأرقام المكتوبة على القصاصات ، وبعد ذلك يسحب كل منا قصاصة ، فمن يكون نصيبه الرقم المحدد ، وجب عليه أن يجيب صادقاً عن أسئلتنا مهما كانت .

قالت چو وكانت مغرمة بكل جديد :

ـ فلنجرب هذه اللعبة !

ولكن لعبة « الصدق » لم تلق هوى فى قلوب أفراد الجماعة كلهم ، فقد اعتذر من الاشتراك فيها كيت وبروك وميج وند ، وبذلك اقتصرت اللعبة على فريد وسالى وچو ولورى ، فكتبوا القصاصات ، واقترعوا عليها ، وكان الرقم المختار من نصيب لورى .

وبدأت چو تسأله فقالت :

ـ من أعظم الناس فى رأيك ؟

أجاب لورى :

ـ جدى ونابليون .

وسألته سالى :

ـ من تراها أجمل آنسات اليوم ؟

قال :

ـ مارجريت .

سأله فريد :

ـ وأيهن أحب إليك ؟

قال :

ـ چو بالطبع .

وقد أجاب عن السؤال الأخير فى جد وصراحة ، فضحك الجالسون ملء أشداقهم ، وقالت چو وهى تهز كتفيها بغير اكتراث :

ـ يا للأسئلة السخيفة ! !

قال فريد متحمساً :

ـ إنها لعبة مسلية ، فدعونا نجربها مرة أخرى .

قالت چو بصوت خفيض ، وقد تذكرت غشه فى لعبة الكريكيت :

ـ والله إنها لعبة تفيدك ، فقد تتعلم منها الصدق .

وحل دورها فى الإجابة عن الأسئلة ، فقال لها فريد ، وغرضه أن يمتحن فيها فضيلة الصدق التى تنقصه :

ـ ما أعظم « أخطائك » .

قالت :

ـ حدة الطبع .

سألها لورى :

ـ ما الذى تتمنين الحصول عليه ؟

قالت ، وقد أدركت رغبته فى استدراجها :

ـ رباطاً للحذاء !

قال :

ـ ليس هذا جواباً صادقاً ، فصارحينا بأكثر ما تودين أن تحصلى عليه .

وتبدى الضيق فى وجهه ، فابتسمت له بمكر وقالت :

ـ أليست هذه وسيلة ماهرة تعرف بها ما أريد فتهديه إلىّ ؟

سألتها سالى :

ـ ما أحب فضائل الرجال إليك ؟

قالت :

ـ الشجاعة والأمانة .

واقترعوا مرة ثالثة ، فرفع فريد قصاصة فى يده وقال :

ـ جاء دورى .

همس لورى فى أذن چو يقول :

ـ فلنؤدبه على ما فعل .

فأومأت برأسها موافقة ، وسألت فريد :

ـ هل عمدت إلى الغش فى لعبة الكريكيت ؟

أجاب :

ـ قليلا ! .

سأله لورى :

ـ ألم تقتبس الجزء الذى رويته فى لعبة القصة من كتاب « أسد البحار » ؟

قال :

– بلى !

سألته سالى :

– ألست تعتقد أن الإنجليز المثل الأعلى فى الكمال ؟

أجاب :

– عار علىّ إذا لم أكن أعتقد ذلك .

وأومأت چو برأسها لفريد فى رضا عن صراحته وصدقه ، وقال له لورى :

– أنت إنجليزى وقح .

ثم التفت إلى سالى وقال :

– لم يبق إلاك ، فلنسألك ، ولا داعى للاقتراع . سأبدأ بهذا السؤال المحرج : ألا توافقيننى على أنك تميلين إلى المغازلة ؟

قالت :

– طبعاً لا . . . أيها الفتى الوقح .

وسألها فريد :

– ما أبغض الأشياء إليك ؟

قالت :

– العناكب وعصيدة الأرز .

سألتها چو :

ـ وما أحب الأشياء إليك ؟

قالت :

ـ الرقص والقفازات الفرنسية .

التفتت چو إلى الجالسين وقالت :

ـ هذه لعبة مملة ، فلنجدد نشاطنا بلعبة « المؤلفين » .

وأيدها فى ذلك ند وفرانك والفتيات الصغيرات ، أما مس كات فقد عادت إلى لوحتها ترسم فيها ، وجلست مارجريت بجوارها ترقب عملها ، فى حين استلقى مستر بروك على الحشائش ، وأمامه كتاب مفتوح لا يقرأ فيه . وانشغل الثلاثة فى حديث طويل .

قالت ميج فى خليط من الإعجاب والأسف :

ـ هذا رسم جميل ، فليتنى أستطيع أن أعمل مثله .

قالت مس كات فى عظمة :

ـ ولم لا تتعلمين الرسم ؟ إن لديك الذوق والموهبة .

قالت ميج :

ـ ولكن ليس لدى الوقت .

قالت :

ـ لا بد أن والدتك ، كوالدتى ، تفضل ألواناً أخرى من الثقافة ،

ولكنى تلقيت بضعة دروس خاصة ، فلما رأت نتيجتها ، آمنت بموهبتى ، وتركتنى أتعلم الرسم . أليس فى مقدورك أن تفعلى ما فعلت فتمرنى يدك على الرسم مع مربيتك ؟

قالت ميج :

ــ ليس لى مربية .

قالت كات :

ــ نسيت أن الفتيات فى أمريكا يتعلمن فى المدارس ، لا فى البيت كما هو شأننا فى إنجلترا ، وقد أكد لى والدى أن مدارسكم راقية جداً . فإلى أية مدرسة خاصة تذهبين ؟

قالت ميج :

ــ إنى لا أذهب إلى مدارس ، لأنى أعمل مربية .

قالت مس كات :

ــ كذا ؟ !

وكان فى صوتها رنة اشمئزاز ، فاستبد الخجل بميج ، وندمت على صراحتها .

ورفع مستر بروك رأسه بسرعة وقال :

ــ إن الفتيات فى أمريكا يؤمن بالحرية والاستقلال ، ومن دواعى فخرنا أنهن يعملن ليعُلْن أنفسهن .

قالت مس كات فى إشفاق آلم ميج ، وزادها احتقاراً لمهنتها :

ـ طبعاً ، وليس فى ذلك حرج ، فلدينا أيضاً فى إنجلترا ، فتيات من أسر كريمة يشتغلن فى بيوت النبلاء مربيات ، ويؤدين عملهن فى براعة وإتقان ، بحكم نشأتهن الطيبة مهذبات مثقفات .

قال مستر بروك يغير الموضوع :

ـ هل أعجبتك الأغنيه الألمانية يا آنسة مارش ؟

أجابت ميج وقد أشرق وجهها مرة ثانية :

ـ أعجبتنى جداً ، وأنا شاكرة لمن قام بترجمتها .

سألتها مس كات فى دهشة :

ـ ألا تعرفين اللغة الألمانية ؟

أجابت ميج :

ـ أعرفها قليلا ، وكان أبى يدرسها لى ؛ ولكن منذ أن سافر إلى ميدان القتال وأنا لا أجد من يصحح أخطائى ، ولذلك أتقدم فيها ببطء شديد .

وحمل مستر بروك كتابه ، ووضعه فى حجرها ، ثم قال بابتسامة مشجعة :

ـ هاك كتاباً ألمانياً ، فجربى أن تقرئى فيه ، وستجدين فىّ مدرساً ومرشداً .

وخجلت ميج أن تقرأ فى الكتاب على مسمع من الإنجليزية المثقفة ، فقالت :

ـ إنها مهمة شاقة ، وأخاف أن أجرب .

قالت مس كات :

ـ سأقرأ مقطوعة لأشجعك .

وأخذت الكتاب ، وجعلت تقرأ صفحة فيه ، وكانت قراءتها صحيحة ونطقها سليما ، ولكن صوتها كان رتيباً مملا لا روح فيه ولا حياة ، فانتهت الصفحة ، وكأن لا معنى لها .

وأعادت الكتاب إلى مستر بروك ، فأخذه صامتاً ، ولم يشأ أن يعلق على قراءتها بكلمة . قالت ميج :

ـ ظننته شعراً !

قال بروك فى ابتسامة غامضة :

ـ إن بعضه شعر ، فحاولى أن تقرئى هذه المقطوعة .

وكانت مقطوعة حزينة ، تصف آلام امرأة ، فبدأت ميج تقرؤها فى صوت موسيقى ، أكسب الكلمات الكبيرة الصعبة رنيناً حلواً شجياً . ولم تلبث الفتاة أن اندمجت فى قراءتها ، فنسيت الجالسين معها ، وجعلت تقرأ لنفسها فى رنة حزينة أضفت على المقطوعة ظلا واقعياً مؤثراً .

وظلت تقرأ ، ومستر بروك يرنو إليها ، وفى عينيه العسليتين إعجاب بالغ ، لم تره لحسن الحظ ، وإلا كانت توقفت عن القراءة لفورها .

وتوقفت عند آخر المقطوعة ، فقال مستر بروك متجاهلا أخطاءها الكثيرة :

ـ عظيم جداً .

قالت مس كات فى تواضع ، وهى تلقى نظرة أخيرة على رسمها :

ـ إن لك لهجة حلوة ، وستكونين قارئة ممتازة فى يوم من الأيام ، ونصيحتى أن تمضى فى دراسة الألمانية ، فإنها ثقافة لازمة للمربيات . والآن سأذهب للبحث عن جريس .

وابتعدت عنهما ، وهى تقول فى نفسها :

ـ هل أتيت اليوم لأجالس مربية ، وأحميها من صحبة الرجال ؟ إن الأمريكيين غريبو الأطوار ، وأخشى أن تفسد أساليبهم أخلاق لورى وشخصيته .

ونظرت ميج خلف الأرستقراطية المتعجرفة ، وقالت بضيق :

ـ ليتنى ما أخبرتها بمهنتى ، فالإنجليز لا يحترمون المربيات ، مثلما نحترمهن فى أمريكا .

قال بروك :

ـ ولا يحترمون المربين أيضاً .

وكان فى صوته آجلى معانى الرضا بحاله ، حتى خجلت ميج لثورتها على عملها . قالت :

ـ من حسن الحظ أننا نعيش فى أمريكا ، حيث يقدر الناس مهنتنا . حقيقة أننى لا أميل إلى عملى ، ولكنى أجد فيه ترضية كافية . لست أتذمر وإن كنت أتمنى أن أحب التدريس مثلما تحبه .

قال بروك وهو يلهو بحشائش الأرض :

ــ ما كنت تكرهين التدريس ، لو كان لورى تلميذك ، ويؤسفنى أننى سأفقده فى العام القادم .

قالت ميج :

ــ عندما يلتحق بالجامعة ؟

قال :

ــ نعم ، لقد حان الوقت ، وعن قريب يتم إعداده للجامعة ، وسألتحق بالجندية عندما يذهب .

قالت ميج :

ــ يسرنى أن أسمع ذلك ، فمن واجب الشباب أن يذهبوا إلى القتال ، وإن شق فراقهم على الأمهات والأخوات .

وكان مستر بروك قد حفر فى الأرض حفرة صغيرة ، فأودعها زهرته الذابلة ، وغطاها بالتراب ، كما لو كانت قبراً صغيراً ، وقال بمرارة :

ــ ليس لى أم تبكينى ، ولا أخوات يحزن لفراقى ، ولن يهتم بأمرى غير أصدقاء قليلين .

قالت ميج بحرارة :

ــ أمرك يهم لورى وجده ، وكلنا نتمنى أن لا يصيبك سوء .

وعاد وجه مستر بروك إلى إشراقه ، وقال :

ــ شكراً على هذه التحية الطيبة .

ولكن قبل أن ينتهى من كلامه أقبل نديمتطى صهوة جواد عجوز ، ليعرض على أنظار الفتيات فروسيته ، فانقضت بقدومه الخلوة الهادئة ، وأحاط الضجيج بالجالسين .

سألت جريس آمى ، بعد سباق حول المعسكر :

ـ أتحبين ركوب الخيل ؟

أجابت آمى ضاحكة :

ـ بل أعبده ، وكانت أختى ميج تركب الخيل أيام عزنا القديم ، ولكننا لا نملك اليوم جياداً سوى « آلان ترى » .

سألتها جريس باهتمام :

ـ وما « آلان ترى » ، أهو حمار ؟

قالت :

ـ لا ، وكل ما فى الأمر أننى وجو نغرم بركوب الخيل ، ولما كنا لا نملك غير سرج قديم ، فقد اعتدنا أن نحمله إلى الحديقة ، ونضعه على غصن منخفض من شجرة التفاح ، ونثبت عنانه فى جذعها ثم نمتطيه كلما هزنا الشوق إلى الركوب .

قالت جريس ضاحكة :

ـ فكرة مسلية ! أما أنا فعندى مهر فى البيت ، وقد اعتدت أن أخرج به مع فريد وكات كل صباح تقريباً ، فنذهب إلى البستان حيث نتقابل مع أصدقائنا . إن « ميدان الراحة » لا يخلو أبداً من

السيدات والسادة .

قالت آمى التى لم تكن تعرف ما هو « ميدان الرماحة » ، ولم يكن يرضى لها غرورها أن تسأل عنه :

ــ مدهش ! . كان بودى أن أسافر إلى الخارج يوماً من الأيام ، ولكنى أفضل أن يكون سفرى إلى روما ، لا إلى ميدان الرماحة .

وكان فرانك يجلس خلفهم ، فلما ترامى إلى سمعه بعض حديث البنات ، ورأى الفتيان يلهون ويلعبون ، دفع عنه عكازه فى ضيق واضح . وكانت بث تجمع القصاصات الصغيرة المتخلفة عن اللعب ، فلما شعرت بضيق الفتى رفعت إليه وجهها وقالت بأسلوبها الخجل الحنون :

ــ إنى أراك تعباً ، فهل من خدمة أؤديها لك ؟

أجاب فرانك ، الذى اعتاد دائماً أن يكون محور عناية أهله :

ــ أرجو أن تتحدثى إلىّ قليلا ، فقد كاد السأم يقتلنى .

وكانت مهمة عسيرة جداً على بث ، ولم يكن أمامها مكان تلوذ به هرباً من الكلام ، ولم تكن چو بجانبها حتى تختفى وراء ظهرها ، فضلا عن أن الفتى كان ينظر إليها وفى عينيه رجاء واستعطاف ، لذلك استجمعت شجاعتها ، وقررت أن تستجيب لرغبته . قالت وقد غلبها الارتباك ، حتى سقطت معظم القصاصات من بين يديها :

ــ أى موضوع تفضل أن نتكلم فيه ؟

ولم يكن فرانك قد أفلح فى إخضاع مزاجه لظروفه الجثمانية ،

فقال :

ـ حدثينى عن الكريكيت والتجديف والصيد .

وجزعت بث ، لأنها كانت تجهل كل ما يتصل بهذه الرياضات ، فقالت وقد تملكها الغيظ حتى أنساها محنة الفتى وآلامه :

ـ لم أشترك فى صيد قط ، ولم أر أحداً يصيد ، وأغلب ظنى أنك ملم بشئون هذه الرياضة .

قال فرانك ، وقد ندت عنه تنهدة حزينة ، جعلتها تندم على ملاحظتها البريئة :

ـ لقد خرجت إلى الصيد مرة ، ولكنى لن أستطيع ذلك مرة أخرى ، فقد ألقانى الجواد عن ظهره ، وهو يقفز من فوق حاجز مرتفع ، فسقطت على الأرض ، وأوذيت فى ظهرى كما ترين . وبذلك انتهى عهدى بالجياد والكلاب .

قالت تدير دفة الحديث إلى وصف البرارى التى قرأت عنها فى كتاب اقترضته مرة من أختها چو :

ـ يقال إن غزلانكم أجمل كثيراً من جاموسنا القبيح .

وأتى الحديث عن الجاموس بأثره المطلوب ، فاشترك معها فرانك فى محادثة مرحة طويلة شغلتها عن الالتفات إلى أختها ، التى راحت تتطلع إليها ولا تكاد تصدق أن بث تغلبت على حيائها ، ورضيت أن تتبادل الحديث مع واحد من الصبيين الفظيعين على حد تعبيرها .

قالت چو فخورة بأختها :

ـ يا لقلبها الطيب ! لقد أخذتها الشفقة به ، فجلست إليه تؤنس وحدته .

أجابت ميج تؤكد قول أختها :

ـ ألم أقل لك دائماً إنها قديسة صغيرة ؟

وكانت جريس مشغولة مع آمى فى حديث طويل عن الدمى واللعب ، فلما سمعت أخاها الكسيح يقهقه عالياً ، التفتت إلى صاحبتها تقول :

ـ لم أسمع فرانك يضحك هكذا منذ أمد طويل .

آجابت آمى فخورة بتوفيق أختها :

ـ تستطيع بث أن تكون « مجذوبة » عندما يحلو لها . . .

وكانت تقصد « جذابة » فأخطأت وقالت « مجذوبة » ، ولكن جريس لحسن الحظ لم تكن تعرف الكلمتين ، فمرت الغلطة بسلام .

ومضت بقية اليوم فى لعب ومرح ، حتى إذا غربت الشمس كانت أدوات المخيم قد جمعت ونظمت ، وعادت القوارب بأفراد الجماعة وهم يغنون ملء حناجرهم .

وجاشت عواطف ند ، فجعل يترنم بأغنية حزينة مطلعها :

« وحدى . . وحدى . . مع الآلام وحدى »

واتجهت عيناه إلى ميج ، وعندما وصل إلى مقطوعة تقول :

« كلانا شباب ، ولكلينا قلب خفاق

فلماذا نقف فى جفاء وابتعاد . . . ؟ »

كانت ترتسم فى نظرته معانى الحزن والأسى ، فلم تملك ميج زمام نفسها وانفجرت فى وجهه ضاحكة ، وبذلك أفسدت عليه أغنيته الطافحة بالعاطفة . قال يهمس فى أذنها :

ـ لماذا تقسين علىّ هكذا ؟ لقد تركتنى طول اليوم إلى صحبة هذه الإنجليزية المتعجرفة ، والآن تسخرين منى وتهزئين بى .

وكانت ميج لا تزال تذكر وليمة آل موفات ، والأحاديث التى سمعتها فى نهايتها ، ولذلك اختارت أن تبعد عنه طول اليوم ، وأن تتجاهل صحبته على قدر الإمكان ، فلما سمعته يهمس فى أذنها معاتباً ، قالت وهى تتظاهر بأنها لم تفهم قصده :

ـ يؤسفنى أن أسأت إليك ، ولكن منظرك كان مضحكاً للغاية ، فلم أتمالك نفسى .

وتألم ند لقولها كل الألم ، فالتفت إلى سالى يطلب العزاء ، وقال لها فى غيظ :

ـ هذه الفتاة غير قابلة للغزل .

أجابت سالى مدافعة عن صديقتها :

ـ صدقت ، ولكنها فتاة لطيفة للغاية !

قال مستظرفاً :

ـ لا يوجد من هو أظرف منك !

وعادت الجماعة إلى حديقة آل لورنس ، وكما تجمعت فيها أول اليوم ، كذلك تفرقت منها فى آخره ، وسارت الأخوات الأربع ، عائدات إلى البيت عبر الحديقة . فلما ابتعدن قليلا ، التفتت كات تنظر إليهن ، وقالت فى عجرفة وقسوة :

ـ إن الفتيات الأمريكيات لطيفات المعشر رغم أساليبهن العجيبة .

أجاب مستر بروك :

ـ وأنا معك فى هذا الرأى .

الفصل الثالث عشر

قصور فى الهواء

فى مساء يوم من أيام شهر سبتمبر ، جلس لورى فى أرجوحته يهزها يميناً وشمالا ، وهو يتساءل عما يشغل جاراته فى البيت الآخر . . . وكان بوده أن يذهب إليهن ليستطلع الخبر ، ولكنه كان يشعر بضيق شديد ، بعد أن مضى به اليوم دون فائدة أو لذة ، حتى تمنى لو كان فى استطاعته أن يعيشه من جديد ، ليختار له منهجاً أفضل .

وكانت حرارة اليوم قد أورثته كسلا وقلقاً ، فتمرد على دروسه ،

وعاكس رائده حتى استنفد صبره ، وضايق جده بعزف الموسيقى طوال المساء ، وأفزع الخدم إذ أوهمهم بأن كلبه مريض ، وحتى خادم الحظيرة المسكين ، لم يسلم من شر لسانه ، فقد اتهمه لورى ظلماً بأنه أهمل العناية بأمر جواده .

وعندما نال كفايته من مضايقة الناس وإزعاجهم ، خرج إلى أرجوحته فى الحديقة فاستلقى عليها يفكر فى سخافة أحوال العالم أجمع ، ثم لم يلبث جمال الطبيعة أن رد إليه هدوء نفسه المفقود ، فانطلق مع أحلامه إلى آفاق بعيدة ، وتخيل أنه يركب البحر فى رحلة ممتعة حول العالم . وفجأة انبعثت من الحديقة المجاورة أصوات عالية ، رأى على أثرها بنات مارش يخرجن من البيت فى نشاط كأنهن أفراد رحلة كشفية .

ودهش لورى إذ رأى الأخوات الأربع يرتدين قبعات واسعة ، ويحملن أكياساً بنية اللون ، ويمسكن بعصى غليظة ، وكانت ميج تحمل وسادة ، وچو تهز كتاباً فى يدها ، وبث تجر خلفها مجرفة ، أما آمى فكانت تسير بخيلاء وتحت إبطها حافظة أوراق كبيرة .

قال لورى لنفسه مغيظاً :

ــ يا للخيانة ! إنها نزهة يخرجن إليها من غيرى ، لست أستبعد أن يكون القارب مقصدهن ، ولكن مفتاحه معى ، فالأفضل أن أحمله إليهن .

ومع أن لورى كان يملك نصف دستة من القبعات ، إلا أنه تعب

فى البحث حتى عثر على واحدة ، ثم جاء دور المفتاح ، فجعل يفتش عنه فى كل مكان من البيت ، ثم وجده أخيراً فى جيبه ، وهكذا ضاع الوقت هباء . فلما خرج يبحث عن صديقاته ، كن قد اختفين عن الأنظار .

ولم يشأ أن يضيع مزيداً من الوقت ، لذلك اتجه إلى مربط القارب من أقرب طريق يعرفه ، ووقف بجواره ينتظرهن ، ولكن الوقت مضى ولم يظهر للفتيات أثر . وأدرك أنهن قد ذهبن إلى مكان آخر ، فأسرع يصعد التل ، عسى أن يهتدى إلى مكانهن من عل . وتلفت حوله مستكشفاً فرأى على مقربة منه ، حرجاً من أشجار الصنوبر تناهت إليه منه أصوات خافتة ليست من فعل اهتزاز الغصون أو تغريد الطير . قال :

— يا للمنظر الجميل !

وكان المنظر بالفعل جميلا ، فقد كان الأخوات الأربع يجلسن معاً فى ركن ظليل بين أحضان الصنوبر ، والشمس تلمع من حولهن ، والنسيم العليل يداعب خصلات شعورهن ، أما الحطابون ، فكانوا فى شغل عنهن بعملهم ، وكأن لا غريب يجلس بينهم . وكانت ميج تجلس على الوسادة ، وهى تطرز بيديها البيضاوين ، وفى جبينها إشراق ونضرة . وكانت بث تنسق كيزان ثمار الصنوبر التى جمعتها من تحت الأشجار ، وتنظمها فى أشكال جميلة . وكانت آمى ترسم مجموعة من نباتات السَّرخس ، راق لها أن تجعل منها موضوع لوحتها الجديدة .

أما چو فكانت تطرز بيديها ، وفى الوقت ذاته تقرأ فى كتابها بصوت مرتفع .

وغشت وجه لورى سحابة من الوجوم ، فقد كانت كرامته تهيب به أن ينصرف عن البنات ما دمن قد قصرن فى دعوته إلى الخروج معهن . ولكنه كان يكره أن يترك صحبتهن المرحة إلى وحدة البيت وكآبته. واستبدت به الحيرة ، فوقف فى مكانه بلا حراك ، حتى إن سنجابا كان يرعى على مقربة منه فوجىء بمرآه ، فصرخ منزعجاً ، وأسرع بالهرب من هذا الغريب الذى يأبى أن يعلن عن وجوده بكلمة أو حركة . وحمل الهواء صرخة السنجاب إلى الجالسات بين أشجار الصنوبر ، فرفعت بث رأسها ، وعندئذ رأت لورى ، فأشارت إليه تستقدمه .

قال وهو يقترب منهن متردداً :

ــ أتسمحن لى بالجلوس معكن ؟ أم ترين أن صحبتى تزعجكن ؟

وهمت ميج بالاعتراض ، ولكن چو سبقتها إلى الكلام قائلة :

ــ تفضل بالجلوس معنا على الرحب والسعة ، لقد كنا نريد أن ندعوك إلى الخروج معنا ، ولكننا خشينا أن تبرم بألعاب الفتيات ووسائلهن فى التسلية .

قال :

ــ إنى أحب ألعابكن وتسلياتكن ، ولكن إذا كان لميج اعتراض على وجودى ، فلن يسوءنى أن أنصرف .

قالت ميج فى وقار وجد :

ــ لا مانع من بقائك ما دمت تقوم بعمل من الأعمال ، فإن الكسل مخالف لدستورنا ، وقد اتفقنا أن نخلف الكسل فى هذه النزهة .

قال لورى وفى وجهه علائم الخضوع والإذعان :

ــ أشكرك إذ سمحت لى بالانضمام إليكن ، فالبيت ممل كئيب ، لا تسلية فيه ولا متعة ؛ أما من حيث العمل ، فأنا على تمام الاستعداد ... ماذا تريدين منى أن أعمل ؟ أأطرز ، أم أقرأ ، أم أرسم ، أم أقوم بكل هذا فى وقت واحد ؟ لن أتأخر عن شىء . . . فمرى . . . أطع . . .

قالت چو ، وهى تناوله كتابها :

ــ اقرأ لنا ، ريثما أعيد تنظيم حذائى .

وأراد لورى أن يظهر شكره لسماحهن له بالانضمام إليهن فقال فى أدب :

ــ سمعاً وطاعة . . .

ولم تكن القصة التى طلب إليه أن يقرأها طويلة ، فلما انتهى منها ، كان حب الاستطلاع قد استبد به ، وتاق أن يفهم المقصود من هذه النزهة التى قالت ميج إن الكسل مخالف لقوانينها . قال فى لهجة رسمية :

ــ أرجو أن تسمحن لى يا حضرات الآنسات أن أسألكن إذا كان هذا الاجتماع العامر بالثقافة والفائدة ، فكرة جديدة اهتديتن إليها ؟

ونظرت ميج لأخواتها مستفسرة ، وقالت :

ـ أنخبره ؟

قالت آمى محذرة :

ـ سيضحك منا إذا عرف .

قالت چو :

ـ وهل يضيرنا أن يضحك ؟

قالت بث :

ـ أنا واثقة أن الفكرة ستعجبه ! .

قال لورى :

ـ ستعجبنى حتما ، وأعدكن بشرفى أن لا أضحك ، فأخبرينى بها يا چو ، ولا تخافى .

قالت چو :

ـ وهل يعقل أن أخاف منك ؟ القصة وما فيها أننا كنا طوال العام نلعب فى البيت لعبة الحجاج .

قال لورى :

ـ أعرف ذلك .

فسألته چو :

ـ وكيف عرفت ؟

قال :

ـ همست العصفورة فى آذنى .

قالت بث فى خجل :

ـ بل أنا التى أخبرته بلعبة الحجاج ، وكان ذلك عندما جاء لزيارتنا ذات مساء ، ولم يكن بالبيت غيرى ، فأردت أن أسرى عنه بما نفعل فى أوقات فراغنا ، وقد راقته اللعبة ، فلا تؤنبينى يا چو .

قالت چو لأختها :

ـ ألا يمكنك أن تحفظى سراً واحداً ؟ ولكن لا بأس ، فقد جنبتنا مشقة شرح اللعبة له !

وعادت چو إلى تطريزها ، وفى وجهها علائم الضيق ، فقال لورى لها :

ـ ألا تحدثينى بما جاء بكن اليوم هنا ؟

قالت :

ـ كنا قد اتفقنا فى بداية العطلة أن نستفيد بأوقاتها ، وأن لا ندع الأيام تمر بنا هباء . وبالفعل قامت كل منا بعمل مفيد ، وحرصت على أدائه بعزيمة وإتقان ، وها قد أوشكت العطلة أن تنتهى ، ومعها أوشكت أعمالها أن تنتهى أيضاً ، ولم تذهب ضحية للكسل كما كان الحال فى الأعوام الماضية .

قال لورى وقد تذكر الأيام المتعاقبة التى يقضيها فى كسل متصل :

ـ والله إنها فكرة طيبة .

قالت چو :

ـ إن أمى تفضل أن نقضى معظم أوقاتنا فى الهواء الطلق ، ولذلك اعتدنا أن نأتى إلى هذا المكان كل يوم ، وعلى سبيل التفريج عن أنفسنا ، ترانا نرتدى هذه الثياب العتيقة ، ونحمل أشغالنا فى أكياس كبيرة ؛ أما العصى فتعيننا على صعود التل . لقد حورنا فى لعبة الحجاج بعض التحوير ، واستعضنا بالتل عن سلم البيت ، وقد أطلقنا عليه اسم « تل الأناقة » ، لأننا إذا وقفنا على قمته ، تكشفت لنا أطراف الريف الذى نتمنى أن نعيش فيه يوما ما .

وأشارت چو بيدها إلى الناحية الأخرى ، فنهض لورى ينظر حيث أشارت ، فرأى من بين سيقان أشجار الصنوبر ، مياه النهر الزرقاء ، ومن خلفها حقول واسعة مترامية الأطراف ، تحتضنها جبال شامخة ، تكاد رءوسها تناطح السحاب ، وكانت الشمس فى غروب ، وأشعتها الحمر تضفى على الكائنات جمالا وروعة ، وعند قمم الجبال تتجمع السحب فى فيض من الأضواء الذهبية والحمر .

وكان لورى فتى مرهف الحس ، يستجيب للجمال بقلبه وإحساساته فقال برقة :

ـ يا للجمال الرائع !

قالت آمى :

ـ إنه دائماً هكذا ، ونحن نحب أن نرقب الكون من هذه البقعة العالية ،

والعجيب فيها أن المنظر يتغير ويتبدل كل يوم ، ولكنه دائماً جميل أخاذ .

قالت بث بهدوئها المعهود :

ـ إن چو تتحدث عن الريف ، حيث تتمنى أن تعيش فى يوم من الأيام . وهى تقصد الريف الحقيقى بخنازيره ودجاجه وكومات تبنه . إنها فكرة رائعة ، فيا ليت الريف الذى نحلم به كان حقيقة واقعة . ويا ليتنا نستطيع أن نذهب إليه .

قالت ميج بصوتها الحنون :

ـ فى هذه السماء العالية مدينة خالدة ، ريفها يفوق جماله كل جمال ، وسنذهب إليها فى يوم من الأيام ، إذا أحسنا فى دنيانا وعشنا طيبات .

قالت بث :

ـ ولكن هذا اليوم يبدو بعيداً ، والكفاح من أجله عصيب ، وبودى أن أطير إلى الخلد حالا ، وأدخل من بابه الجميل .

قالت چو :

ـ صبراً يا بث ، فلا شك فى أنك ستذهبين إليه قريباً أو بعيداً ، أما أنا فعلىّ أن أكافح وأعمل وأجاهد وأجد ، وربما بعد هذا كله لا يكون لى نصيب فيه .

قال لها لورى :

ــ وسأكون فى رفقتك ، إذا كنت ترين فى رفقتى عزاء، فإن علىّ أن أكافح كثيراً قبل أن أصل إلى مدينتكن الخالدة .

والتفت إلى بث وقال :

ــ إذا سبقتنى إلى المدينة الخالدة ، يا بث ، فلا تنسى أن تذكرينى هناك بكلمة طيبة .

وكان فى عينى الفتى تعبير عجيب أقلق بث الصغيرة الوديعة ، ولكنها أجابت فى هدوء ، وعيناها عالقتان بالسحب العالية :

ــ إذا كان الإنسان فى شوق إلى دخول الجنة ، وإذا كان قد قضى حياته يجاهد من أجل ذلك ، فلا بد له من أن يدخلها . لست أصدق أن للجنة أبواباً وأقفالا وحراساً ، بل إنى أتصورها أرضاً خضراء فيها ملائكة مضيئة تمد أيديها مرحبة بالقادمين .

قالت چو بعد فترة صمت :

ــ لو تحققت القصور التى نبنيها فى الهواء ، وأمكننا أن نعيش فيها ! . .

قال لورى ، وهو يرمى السنجاب الذى كشف عن وجوده بثمرة من ثمار الصنوبر :

ــ لقد بنيت آلاف القصور فى الهواء، وسيصعب علىّ إذا تحققت أن أختار لسكناى واحداً منها .

قالت ميج :

ـ اختر أقربها إلى قلبك ، فما هى أعظم أمنية لك فى الحياة ؟

قال لورى :

ـ وهل إذا أجبتك صادقاً ، تجيبينى بأعظم أمنية لك ؟

قالت :

ـ نعم ، بشرط أن يعترف البنات بأمنياتهن أيضاً !

قالت چو وبث وآمى :

ـ سنعترف ، ولنبدأ بلورى .

قال لورى :

ـ لقد طفت ببلاد كثيرة ، ورأيت العالم كما أشتهى ، وقد تركزت آمالى فى أن أعيش فى ألمانيا ، حيث أستطيع أن أتعلم الموسيقى ، لأصبح موسيقياً شهيراً ، يفد الناس لسماع عزفه من كل بقاع الدنيا . لن يهمنى المال أو الأعمال ، فكل ما أريده أن أمتع نفسى بما تشتهيه ، وأن أعيش من أجل الفن الذى أعبده . . . هذه أعظم أمنية لى فى الحياة ، فماذا عنك أنت يا ميج ؟

وترددت مارجريت قليلا ، كأنها تجد مشقة فى وصف أمانيها ، ثم مرت بيدها على وجهها ، وقالت :

ـ أتمنى أن يكون لى بيت جميل عامر بكل ألوان الترف ، طعام

لذيذ ، وملبس أنيق ، ورياش ثمين ، وأناس ظرفاء ، وأكداس من المال . وأحب أن أدير هذا البيت كما اشتهى ، وأن يقوم على خدمتى فيه خدم كثيرون ، حتى لا أكون ملزمة بعمل ما . . . ولكنى لن أعمد للكسل ، فسأكون امرأة طيبة ، حتى يجمع الناس على محبتى وتقديرى .

سألها لورى بخبث :

ــ وهل سيكون لهذا البيت سيد يا ميج ؟

قالت بخجل :

ــ لقد قلت إننى أريد معى أناساً ظرفاء .

وأطرقت برأسها ، وتشاغلت بربط حذائها ، حتى لا يكشف الجالسون مبلغ خجلها .

وكانت چو ما زالت أصغر سناً من أن تحلم بالزواج بعد ، وكانت بطبعها تحتقر العاطفيات إلا فى القصص ، فقالت بصراحتها المعهودة :

ــ لن يكون قصرك شيئاً مذكوراً بغير زوج حكيم وسيم ، وأطفال فى براءة الملائكة ، فلماذا لم تكملى الصورة كما يجب ؟

أجابت ميج محنقة :

ــ وماذا عن قصرك أنت ؟ لا أظن إلا أنك ستملأينه بالخيول والمحابر والكتب .

قالت چو بحماسة :

ــ طبعاً ! سيكون لى فيه حظيرة بها خيول عربية أصيلة ، وغرف

مملوءة بكتب لا عداد لها ، وسأغمس قلمى فى محبرة سحرية ، حتى تكتب لى فى عالم التأليف شهرة كالتى ينشدها لورى فى الموسيقى . أريد أن أكون كاتبة أؤلف الكتب وأنال الشهرة العريضة . ولكنى أريد قبل ذلك أن أقوم بعمل رائع يخلد اسمى بعد موتى ، ويذكر الناس بى جيلا بعد جيل . لا تسألونى عن هذا العمل ، فإن رأيى لم يستقر عليه بعد ! وما زلت أترقب الفرص ، وسأدهشكم يوماً ما ببطولتى !

وحل دور بث فقالت فى رضا وقناعة :

ـ كل أملى فى الحياة أن أعيش مع أبى وأمى فى أمن واطمئنان ، أساعدهما فى إدارة البيت ورعاية شئون الأسرة .

سألها لورى :

ـ أليست لك أمنية أخرى ؟

قالت :

ـ كنت أتمنى فيما مضى أن يكون لى معزف ، أما وقد حصلت عليه ، فأنا راضية بحالى ، وأرجو من الله أن يحفظ لنا صداقتنا ، ويجمع دائماً شملنا . . . لا شىء أكثر من هذا .

قالت آمى :

ـ إن لى أمنيات كثيرة ، ولكن أقربها إلى نفسى أن أسافر إلى مدينة روما لأتعلم الرسم ، حتى أصنع لوحات عظيمة ، وأصبح أعظم رسامة فى الدنيا .

قال لورى فى تفكير ، وهو يلوك قطعة قش بين أسنانه :

ــ يا لطموحنا العظيم ! كلنا ما عدا بث نريد أن نكون أغنياء عظماء سعداء ، إنى أشك فى أن أحدنا سيتحقق له أمل واحد من هذه الآمال الكبار . . . .

قالت چو فى لهجة غامضة :

ــ إن لدى الوسيلة إلى بلوغ أملى ، ولست أدرى بعدُ إذا كان فى مقدورى أن أستعين بها .

وتمتم لورى فى ضيق :

ــ وأنا أيضاً لدى الوسيلة ، ولكنهم يمنعوننى من الاستعانة بها ، وكل هذا من أجل إتمام دراسة الجامعة ، لعنة الله عليها .

وقالت آمى وهى تلوح بقلمها :

ــ هذا وسيلتى إلى تحقيق أحلامى .

وقالت مارجريت بوجوم :

ــ أما أنا فليس لدى ما يعيننى على تحقيق آمالى .

وهتف بها لورى :

ــ بل لديك الوسيلة الفعالة .

قالت :

ــ أين ؟

قال :

– وجهك الجميل .

قالت :

– كلام فارغ وهراء ، فالجمال لا يفيد .

وكان لورى يعتقد أنه يلم بسر يؤكد كلامه ، فقال ضاحكاً :

– انتظرى ، وسوف ترين كيف يأتيك جمالك بما تتمنين .

وتخضب وجه ميج بحمرة الخجل ، ولكنها لم تسأله تفسيراً لكلامه ، إنما تطلعت إلى الأفق البعيد ساهمة ، مثلما فعل مستر بروك يوم جلس فى المخيم يروى للجماعة قصة الفارس المغوار . . .

وكان لچو قدرة عجيبة على ابتكار أفكار جديدة ، فقالت :

– اقترح أن نتفق من الآن على الاجتماع فى مثل هذا اليوم بعد عشر سنوات ، إذا قدر لنا أن نعيش إلى هذا الحين ، لنرى إذا كان بعض أحلامنا قد تحقق ، أو إذا كنا قد اقتربنا من تحقيقها أكثر من الآن

قالت ميج ، وكأن السنين أثقلت كاهلها ، مع أنها ما تزال فى السابعة عشرة من عمرها :

– سأكون إذ ذاك عجوزاً فى السابعة والعشرين . . . فظيع !

قالت چو :

– وسأكون أنا ولورى فى السادسة والعشرين ، وآمى فى الثانية والعشرين ، وبث فى العشرين فقط ، فيا للجماعة الوقورة !

قال لورى :

ـ أرجو أن أكون إذ ذاك قد قمت بعمل أفخر به ، وإن كنت أخشى أن أظل كسلان طول حياتى

قالت چو :

ـ تعتقد أمى أنك فى حاجة إلى حافز يحفزك ، وهى واثقة أنك ستأتى بجلائل الأعمال عندما يتوفر لك هذا الحافز .

وانتصب لورى جالساً من رقدته وقال بحماسة :

ـ أتعتقد ذلك حقيقة ؟ والله إن فى مقدورى أن أفعل كثيراً ، إذا ما أعطيت الفرصة !

ثم سكت قليلا وقال :

ـ من واجبى أن أكون راضياً بحالى ، لأدخل السرور على قلب جدى ، وأنا أبذل منتهى جهودى لأسعده ، ولكن أعصابى تكاد تتحطم ، فهو يريدنى أن أكون تاجراً فى الهند ، ولكنى أكره الشاى والحرير والتوابل ، ولو ترك لى بواخره العظيمة فلن يسوءنى أن تغرق جميعها فى قاع البحر . سأدخل الجامعة إرضاء له ، ولكنى أعلم أننى سأعيش فيها على غير هواى ، اللهم إلا إذا خرجت على طاعته ، واخترت الحياة التى تروقنى ، كما فعل والدى من قبل . ولو كان للرجل العجوز عزيز غيرى ، ما توانيت عن تغيير حياتى فى أقرب فرصة .

وكان لورى يتكلم فى حماسة شديدة ، حتى ليحس المستمع إليه أنه على أتم الاستعداد لتنفيذ تهديده عند أول إثارة . ولعل السر فى ذلك أنه كان ينمو بسرعة ، وكان له ، على رغم سنه الصغيرة ، أخلاق الرجال بكل ما فيها من كراهية للخضوع ، ورغبة فى الاعتماد على النفس .

وكانت چو تقدر لورى ، وتميل دائماً إلى اغتفار أخطائه ، هذا إلى حبها الغريزى للمخاطرات والمغامرات ، فقالت :

ــ أنصحك أن تسافر فى إحدى بواخر جدك ، ولا تعد حتى تجرب حظك فى الحياة .

ولكن ميج لم توافق على نصيحة أختها ، فقالت فى لهجة الأم العاقلة :

ــ هذا لا يصح يا چو ، ولا ينبغى أن تتكلمى إليه بمثل هذا القول ، وأعتقد أن لورى أعقل من أن يعمل بنصحك السيء .

والتفتت إلى لورى تقول :

ــ ابذل جهدك فى الجامعة ، حتى يرى جدك أنك تضحى فى سبيل إرضائه ، وعندئذ لن يشتد معك ، أو يقاوم رغباتك . وما دمت قريبه الوحيد ، فمن واجبك أن تبقى معه وتحبه ، وثق أنك إذا لم تفعل ذلك ، فسوف تقضى حياتك معذباً نادماً ، فلا تحزن ولا تتعذب ، بل امض

فى حياتك راضياً ، وقم بواجباتك كما ينبغى . إن مستر بروك يقول : كفى المرء فخراً أن يكون محبوباً مبجلا .

ونزلت كلماتها على قلب لورى برداً وسلاماً ، ومع ذلك فقد استاء بعض الاستياء لمحاضرتها الأخلاقية الطويلة ، فقال لها :

ــ والله إنك لا تعرفين شيئاً عن جدى .

قالت :

ــ لست أعرف أكثر مما سمعته والدتى عنه من أبيها ، فطالما تحدث إليها عن خلقه الكريم ، وروى لها كيف تفانى فى خدمة أمه إلى آخر لحظة فى حياتها ، ولم يرض أن يسافر إلى الخارج إكراماً لها ، وكيف أنه يعول امرأة عجوزاً كانت خادمة لأمه ، ويبقى إحسانه فى الخفاء ، كارهاً أن يعلن عنه ، وأنه فوق كل هذا رجل طيب صبور ، عميم الفضل ، عظيم الإحسان على الفقراء .

وسكتت ميج عن الكلام وقد توردت وجنتاها حماسة ، فقال لورى مصدقاً على كلامها :

ــ والله إنه لكذلك ، وأعظم ما فيه أنه لا يعلن عن طيباته ، إنما يعلن عنه غيره ممن عرفوه ولمسوا أفضاله . ولقد تعجب رائدى بروك لكرم أمك فى معاملة جدى ، ومثابرتها على دعوته مع بروك إلى بيتكم ، وتفانيها فى مجاملته والترحيب به . ولقد كان يظن ذلك مظهراً لأدبها الوفير ،

فظل يمتدحها لى طيلة المساء ، ثم انتقل إلى الحديث عنك بحرارة منقطعة النظير . والله لو تحققت آمالى ، لفعلت الكثير من أجل بروك . . .

قالت ميج فى حدة :

ــ ولم لا تبدأ من الآن ، فتخفف من غلوائك فى معاملته ؟ إن أعمالك أحياناً تكاد تزهق أنفاسه .

قال لها :

ــ ومن أين لك هذا الكلام ؟

قالت :

ــ إنى أراه بنفسى ، عندما تكون هادئاً مطيعاً ، ينصرف عنك باسما نشيطاً ؛ وعندما تنتابك أزمات العناد والعصيان ، أراه يسير واجماً متردداً ، كما لو كان يريد أن يعود إليك ليبدأ الدرس معك من جديد .

قال لورى :

ــ أمرك عجيب ! لم أكن أعرف أنك تراقبين سلوكى فى تعبيرات وجه مستر بروك ، لقد كنت أرى بدورى كيف يبتسم عندما يمر بنافذتك ، وينحنى لك باحترام بالغ ، ولكنى لم أكن أعلم أنكما تتحدثان عنى .

وانزعجت ميج خوفاً مما قد يترتب على كلامها الصريح فقالت :

ـ لم نتحدث عنك قط ، فلا تغضب ، ورجائى أن لا تخبره بما قلت لك الآن . لقد أردت فقط أن أثبت لك اهتمامى بأمرك ، وقد اعتدنا الصراحة معك دائماً .

أجاب لورى مترفعاً :

ـ ليست الوشاية من أخلاقى ، ولم أتعود ترديد الأحاديث التى أسمعها ، ولكن إذا كان بروك قد قرر أن يكون ترمومتراً لأخلاقى ، فمن

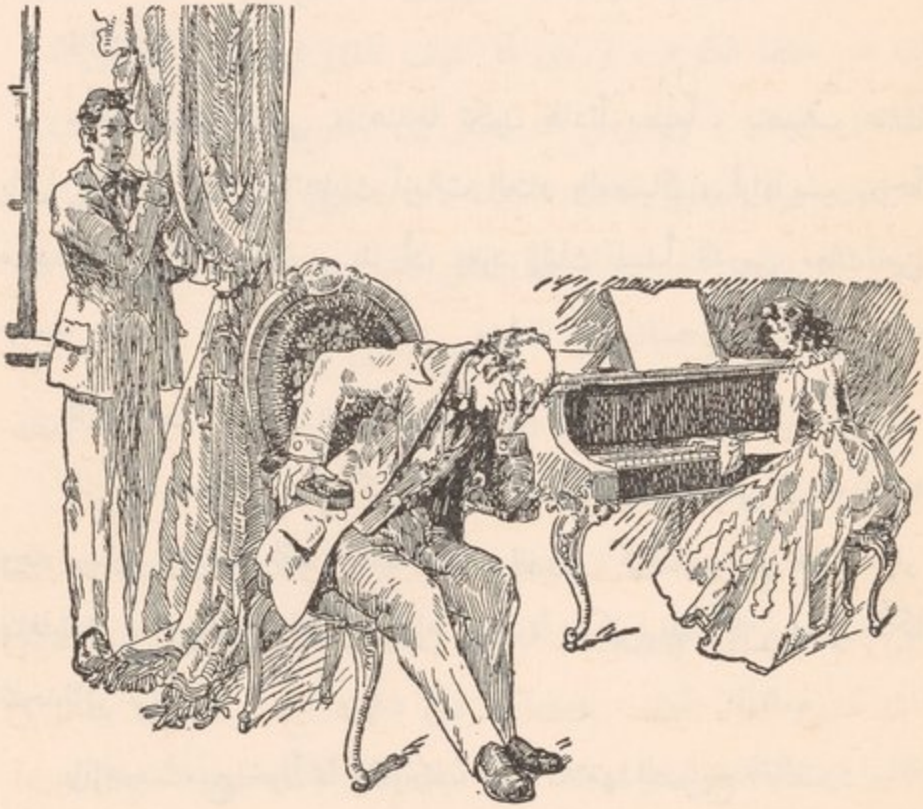

واجبى أن أحيطه دائماً بالجو الملائم ، حتى تطيب معلوماتك عنى .

قالت ميج :

ـ لا تتألم لما ذكرت ، فما أردت أن أجرح شعورك أو أغضبك ، إنما خيل إلى أن چو تحرضك على ما قد تندم عليه فى يوم من الأيام . لقد كنت طيباً معنا ، ونحن نشعر كما لو كنت أخاً شقيقاً لنا ، ولذلك نصارحك بكل ما يجول فى خواطرنا ، ولا نخفى عنك رأياً أو فكرة. كنت حسنة القصد فيما قلت ، فسامحنى .

ومدت له يدها فى خجل وإخلاص تريد مصالحته .

وأسف لورى على اندفاعه المفاجئ ، فتناول يدها يصافحها بحرارة ، وقال بصراحة :

ـ بل أنا الذى يجب أن أطلب منك المغفرة ، وأرجوك أن تتجاوزى عن خشونتى ، فقد كنت قلقاً ضيق الصدر طول اليوم . ويسرنى أن تكونى لى أختاً ، وتعددى أخطائى . وأرجو أن لا تستائى إذا رأيت منى جموحاً فى بعض الأحيان . وأنا أيضاً شاكر لكن صراحتكن وعطفكن .

ولكى يطمئنها إلى أنه غير غاضب أو متألم ، بذل جهده ليكون لطيفاً مع الجميع ، فساعد ميج على لف خيوط التطريز ، وقرأ لجو فى كتابها كما أرادت ، وعاون بث على تنسيق ثمار الصنوبر ، ورسم فى لوحة آمى ، وبذلك شعر أنه قد أصبح عضواً نافعاً فى حلقة آل مارش .

وبينما كانت الجماعة فى مناقشة حامية حول طبائع السلاحف ، ومزاياها العديدة ، حمل الهواء إلى آذانهم رنين جرس آتياً من بعيد ، إيذاناً لبنات مارش بأن حنا قد أعدت لهن الشاى ، وأصبح لزاماً عليهن أن يعدن إلى البيت مسرعات .

قال لورى :

ــ أتسمحن لى أن أشارككن فى مثل هذه الجلسة ؟

قالت ميج باسمة :

ــ نعم . بشرط أن تكون طيباً وتحب دروسك ، كما يقولون للأطفال فى المدارس الابتدائية .

قال :

ــ سأحاول .

وعندما بلغوا أبواب البيت ، قالت چو للورى وهى تلوح بيدها مودعة :

ــ إذاً يمكنك أن تشترك معنا ، وسأ علمك كيف تشتغل التريكو ، فإن الطلب قد ازداد فى هذه الأيام على الجوارب الصوفية .

وفى هذا المساء عندما جلست بث إلى المعزف تسمع مستر لورنس العجوز بعض قطعها الموسيقية ، وقف لورى وراء الستار يرقب جده ، وقد جلس فى مقعده معتمداً رأسه على يده ، وهو يفكر فى حفيدته الصغيرة المحبوبة التى فقدها منذ سنوات . وتذكر لورى فى هذه اللحظة

حديثه مع ميج ، فشعر برغبة شديدة فى التضحية بآماله من أجل جده العزيز . قال فى نفسه :

ـ أنا كل من بقى له من الأهل والأحباب ، فلأتنازل عن قصور الأمانى والأحلام ، وأبقى معه ما دام فى حاجة إلىّ .

الفصل الرابع عشر

أسرار

أقبل شهر أكتوبر وسرت البرودة فى الجو ، وقصرت ساعات اليوم ، فانشغلت چو بأمورها فى غرفة السطح . وكانت الشمس ترسل أشعتها ساعتين أو ثلاثاً فى اليوم ، فتنفذ خلال النافذة العالية ، لتنعكس على الفتاة وهى قابعة على الأريكة العتيقة ، وقد انهمكت فى الكتابة ، وألقت بالمسودات على حقيبة قديمة ، على حين جعل صديقها الفأر « سكرابل » يروح ويجىء آمناً مصطحباً ابنه الأكبر ، وهو فأر فتى يتيه عجباً بشواربه

الطويلة . وفى ذات يوم من هذه الأيام ، ظلت چو غارقة فى كتابتها حتى إذا ما انتهت من آخر صحيفة بين يديها ، وقعت باسمها فى ذيلها بخط واضح كبير ، ثم ألقت بالقلم وقالت :

ـ لقد بذلت كل ما فى وسعى ، فإذا لم يكن ما كتبت مناسباً ، فلا مناص من الانتظار حتى أتمكن من تأليف قطعة أفضل .

واستلقت على الأريكة ، وشرعت تقرأ المسودات فى عناية ، فتضيف نقطة هنا ، وشرطة هناك ، وهى لا تنسى أن تسرف فى وضع علامات التعجب والاستفهام فى كل مناسبة فى أثناء مراجعتها ، ولما انتهت حزمت الأوراق بشريط أحمر ، وتأملت الحزمة فى جد ينم عن مبلغ اهتمامها بما كتبت .

وكانت مكتبة چو فى هذه الغرفة لا تتعدى منضدة صغيرة مغطاة بالصفيح ، كانت تحتفظ فى درج محكم منها بمسودات كتاباتها وبعض كتبها ، حتى لا تصل إليها أنياب سكرابل ذى المزاج الثقافى ، الذى يدفعه إلى قرض الكتب والأوراق التى تترك أمامه . ومن ذلك الدرج الأمين أخرجت چو رزمة من المسودات ، ثم وضعت الرزمتين فى جيبها ، ونزلت السلم بهدوء ، تاركة صديقها الفأر يقرض ما يشاء من قلمها ويتذوق ما يحب من محبرتها .

وارتدت مئزرها وقبعتها فى هدوء ما أمكن ، ثم استرقت الخطى نحو النافذة الخلفية للطابق الأرضى ، وخرجت منها إلى سقف مظلة منخفضة ،

قفزت من فوقه إلى أرض الحديقة ، ثم دارت فى طريق طويل حتى وصلت إلى الشارع ، وهناك تمالكت نفسها ، فاستقلت عربة الأوتوبيس إلى المدينة وفى عينيها وميض الفرح والغموض .

وكان الغموض يكتنف كل حركاتها وتصرفاتها : فما إن نزلت من العربة ، حتى سارت بخطى سريعة نحو بناء معين بأحد الشوارع المزدحمة ، فلما بلغته ، دخلت من بابه ، ونظرت لحظة إلى درجات سلمه القذرة ، ثم لم تلبث أن عادت على أعقابها إلى الشارع مسرعة . وتكررت هذه العملية مرات ، مما أثار الاهتمام فى نفس شاب أسود العينين كان يراقبها من نافذته عبر الشارع . وأخيراً عادت للمرة الثالثة ، وقد جمعت شجاعتها وأرخت حافة قبعتها فوق عينيها ، ثم صعدت السلم وهى تبدو كأنها ذاهبة لخلع أسنانها جميعاً .

وكان يزين مدخل البناء لافتة لطبيب أسنان — بين لافتات أخر — رسم عليها فكان صناعيان يتحركان فى بطء ، ليلفتا الأنظار إلى جمال صنعتهما ودقتهما . فارتدى الفتى معطفه ، وأخذ قبعته ، وهبط من مكانه إلى الشارع ينتظرها أمام الباب المقابل للبناء الذى دخلته الفتاة . قال لنفسه وهو يبتسم :

— لا يدهشنى أن تأتى إلى هذا المكان وحيدة ، ولكنها ستحتاج إلى من يصحبها فى عودتها إذا انتهت الأمور بما لا تشتهى .

ولم تمض دقائق عشر ، حتى خرجت چو تجرى إلى الطريق

محتقنة الوجه غاضبة ، وعندئذ وقع بصرها على الفتى ، فأومأت إليه تحييه ، وهى راغبة عن رؤيته ، ولكنه تبعها فى هدوء وقال يواسيها :

ـ هل مررت بمحنة شديدة ؟

قالت :

ـ لم تكن شديدة .

قال :

ـ ولكنك لم تمكثى بالداخل طويلا ! !

قالت :

ـ نعم ، لحسن الحظ .

قال :

ـ ولم ذهبت وحدك ؟

قالت :

ـ لم أشأ أن يعلم أحد بمهمتى .

قال :

ـ لم أر فى حياتى من هو أعجب منك يا چو ! ! كم مرة نشر لك ؟؟

ونظرت چو إلى صديقها كأنها لا تفهم سؤاله ، ثم جعلت تضحك ، كأن فكرة طارئة أشاعت السرور فى نفسها . قالت :

ـ لم ينشر لى شىء بعد . وكنت أتمنى أن ينشر لى اليوم اثنان ، ولكنى مضطرة إلى الانتظار أسبوعاً .

ونظر لورى إليها كمن أغلق عليه فهمها ، وقال :

ـ ماذا يضحكك ؟ وماذا كنت تفعلين فى ا لخفاء يا چو؟

قالت تغير دفة الحديث :

ـ بل أخبرنى أنت يا سيدى ، ماذا كنت تفعل فى قاعة البلياردو هذه ؟

قال :

ـ عفوك يا سيدتى ! لم أكن فى قاعة البلياردو ، بل كنت فى معهد للرياضة البدنية أتدرب على المبارزة بالسيف .

قالت :

ـ يسرنى أن أسمع ذلك .

قال :

ـ لماذا ؟

قالت :

ـ لأنك ستعلمنى المبارزة ، حتى نستطيع أن نؤدى منظراً فريداً عندما نمثل رواية هاملت عن قريب .

فانفجر لورى ضاحكاً فى صوت عال مرح أثار اهتمام بعض المارة ، فابتسموا بدورهم .

قال :

ـ سوف أعلمك المبارزة ، سواء مثلنا هاملت أم لم نمثلها ، فهى

رياضة جميلة تكسب الجسم قوة ورشاقة ؛ ولكن لماذا أبديت رضاك عندما علمت بوجودى فى معهد الرياضة البدنية ؟

قالت :

ــ خشيت أن تكون من المترددين على قاعات البلياردو ، ولست أحب لك أن تندمج فى مثل هذه الأماكن . أتميل إلى الذهاب إليها ؟

قال :

ــ أحياناً .

قالت :

ــ وددت لو انقطعت عنها .

قال :

ــ وهل فى التردد عليها ضرر يا چو ؟ إن لدينا بالبيت منضدة للبلياردو ، ولكن اللعب لا يكون ممتعاً إلا مع لاعبين مهرة . إنى أحب هذه الرياضة ، ولذلك أتردد على القاعة لألعب بعض الأشواط مع ند موفات أو غيره من الفتيان .

قالت چو وهى تهز رأسها :

ــ يؤسفنى أن أسمع ذلك ، وأخشى أن يجتذبك المكان ، فتكثر من التردد عليه ، لتضيع وقتك ومالك هباء ، مثلما يفعل هؤلاء الفتيان الطائشون كان أملى أن تظل محترماً ، وتتصرف بما يرضى أصدقاءك .

قال لورى وقد بدا عليه الارتباك :

ـ وهل بعض المتعة البريئة يفقد الفتى احترام الناس إياه ؟

قالت :

ـ هذا يتوقف على نوع المتعة وأين تكون ، إنى لا أميل إلى ند وصحبه ، وأتمنى أن تبتعد عنهم ، فقد أبت أمى أن ندعوه إلى بيتنا رغم رغبته الشديدة فى زيارتنا ، وأخشى أن لا ترحب بصداقتك لنا إذا حذوت حذوه .

قال فى لهفة :

ـ أحقاً ما تقولين ؟

قالت :

ـ نعم ، إنها لا تحتمل الفتيان المستهترين ، وتفضل أن تغلق علينا باب دارنا من أن تدعنا نختلط بهم .

قال :

ـ لا داعى لكل هذا ، فأنا لست مستهتراً ، ولا أحب أن أكون كذلك ، ولكنى أميل إلى التسلية البريئة أحياناً . ألست مثلى فى ذلك ؟

قالت :

ـ نعم . إن التسلية لا تضر أحداً ، فتسلَّ كما شئت ، ولكن لا تشتط وإلا انتهت أوقاتنا السعيدة معا .

قال :

ـ سأكون أكثر من القديسين طهراً ونقاوة .

قالت :

ـ ولكننا لا نحب القديسين أيضاً ، فكن بسيطاً ، أمينا ، محترماً ، وبذلك تبقى صداقتنا إلى الأبد . ويعز علىّ أن تصير إلى ما صار إليه ابن مستر كنج ، الذى أفسده المال والفراغ ، فانحرف عن الطريق السوى ، وبلغ الأمر به أن قامر ، وهرب من البيت ، ثم زور إمضاء أبيه ، وبذلك ارتكب وزراً كبيراً .

قال :

ـ أوتعتقدين أننى أنحدر إلى هذا الدرك ؟ أشكرك على حسن ظنك !

قالت :

ـ لا ، لست أسىء الظن بك ، ولكنى أسمع الناس يتحدثون عن خبث إغراء المال ، فيستبد بى القلق عليك ، وأتمنى لو كنت فقيراً حتى لا تتعرض للشرور .

قال :

ـ أيقلقك حالى يا چو ؟

قالت :

ـ أحياناً ، عندما أراك واجماً أو متذمراً ، إن لك شخصية قوية ، فإذا انحدرت إلى طريق الخطأ ، كان من العسير أن تعاد إلى صوابك .

وسار الفتى بضع دقائق دون أن يقول شيئاً ، واختلست چو نظرة

إليه ، ورأت الغضب يلتمع فى عينيه ، رغم الابتسامة التى ظلت حائرة على شفتيه ، عندئذ ندمت على كلامها أشد الندم . وقال لورى أخيراً :

ــ هل فى نيتك أن تسمعينى نصائحك ومواعظك طوال الطريق ؟

قالت :

ــ قطعاً لا . . ولكن لِم تسأل ؟

قال :

ــ لأنك إذا كنت تنوين ذلك ، فالأفضل أن نركب عربة الأتوبيس حتى نختصر الوقت ، وإذا سكتِّ عدنا إلى البيت سيراً على الأقدام ، إذ عندى أنباء مسلية أحب أن أرويها لك .

قالت :

ــ سأكف عن النصح ، فأسرع بما لديك .

قال :

ــ ولكن أنبائى أسرار دفينة ، فإذا قصصتها عليك ، وجب عليك أن تحدثينى بأسرارك أيضاً .

قالت :

ــ ليس عندى ما أخفيه عنك .

ثم وقفت عن السير فجأة ، وقد تذكرت أنها بالفعل تخفى عنه بعض الأنباء .

فصاح لورى :

ـ أنا واثق أنك تخفين عنى سراً ، فهيا اعترفى بالحق ، حتى أقص عليك أخبارى .

قالت :

ـ أهى أخبار طيبة ؟

قال :

ـ دون شك ، وأى أخبار ! !إنها تخص أناساً تعرفينهم ، ويجب أن تعلمى بها ، وقد مضى وقت طويل وأنا أتحرق شوقاً لإطلاعك عليها ، ولكن ابدئى بما عندك أولا .

قالت :

ـ وهل تحفظ سرى ، ولا تخبر به أحداً فى البيت ؟

قال :

ـ لن أبوح بكلمة منه .

قالت :

ـ أتعد بأن لا تغيظنى به ؟

قال :

ـ وهل تعودت أن أغيظك ؟

قالت :

ـ أحياناً . . وتدهشنى طريقتك الناجعة فى انتزاع أسرار الناس ، لقد ولدت محباً للاستطلاع على ما أعتقد .

قال :

ـ شكراً لك . . . هيا أسرعى بالكلام .

فهمست چو فى أذن صديقها قائلة :

ـ خلفت ورائى قصتين مع صاحب جريدة ، وقد وعد بأن يبلغنى رأيه فيهما بعد أسبوع .

وقذف لورى بقبعته فى الهواء عالياً ، ثم تلقفها بيده وصاح قائلا :

ـ مرحى مرحى . . . مس مارش . . . الكاتبة الأمريكية الشهيرة .

قالت :

ـ صه ! لا تسرع بالتفاؤل فقد يرفضهما صاحب الجريدة . على كل حال ، لم يكن ليهدأ لى بال ، حتى أجرب حظى فى الكتابة ، وقد احتطت للأمر فلم أخبر أحداً بنيتى ، حتى لا أخيب آمال غيرى فىّ إذا أخفقت .

قال :

ـ لن تخفقى ! فكتاباتك وقصصك تعتبر فى مستوى شكسبير إذا ما قورنت بالسخافات التى تنشرها الجرائد كل يوم . . . ما أجمل أن نرى قصصك مطبوعة فى الجرائد ، سيكون من حقنا أن نفخر بمؤلفتنا البارعة !

والتمعت عينا چو سروراً لثقة الناس بها ، فقد كان تقدير أصدقائها أثمن لديها من تقريظ عشرات الجرائد التافهة .

قالت وهى تحاول أن تخفى الآمال التى انتعشت بتقدير صديقها ومديحه :

ـ والآن علىّ بسرك ، وإياك أن تخفيه ، وإلا فقدت ثقتى بوعودك .

قال :

ـ لن أرجع فى وعد قطعته على نفسى ، وقد يحرجنى أن أفضح السر ، ولكن لا بأس من المخاطرة ، فمن عادتى أن لا أرتاح حتى أتحدث بما لدى من أخبار مثيرة . . . إنى أعرف أين ذهب قفاز ميج ! !

وكانت نظرات لورى عامرة بالغموض ، ولكن چو وجدت الخبر تافهاً ، فقالت بخيبة أمل ملحوظة :

ـ أهذا كل شىء ؟

قال :

ـ ستجدينه خبراً هاماً ، عندما أخبرك أين يوجد القفاز !

قالت :

ـ أخبرنى إذاً .

وانحنى لورى على أذن چو ، وهمس بكلمات ثلاث ، أحدثت فى وجهها تغيراً شديداً مفاجئاً . ووقفت الفتاة فى مكانها جامدة ، وهى تتأمله فى غضب ودهشة ، ثم استأنفت سيرها ، وهى تقول فى حدة :

ـ كيف عرفت ؟

قال :

ــ رأيته .

قالت :

ــ أين ؟

قال :

ــ فى جيبه .

قالت :

ــ طول الوقت ؟

قال :

ــ نعم . . . ألا ترينه خبراً عاطفياً مثيراً ؟

قالت :

ــ لا ، بل خبر قبيح .

قال :

ــ ألا يسرك ذلك ؟

قالت :

ــ لا طبعاً ، هذه سخافة ، ولا يجوز أن نسمح بها . . . ترى ماذا تقول ميج إذا عرفت ؟

قال :

ــ ولكنك لن تخبريها ، وإياك أن تفعلى . . .

قالت :

ـ لا أذكر أننى وعدتك بالكتمان .

قال :

ـ كان الكتمان أساس حديثنا ، ولقد وثقت بك .

قالت :

ـ إذاً لن أفضح السر فى الوقت الحاضر ، ولكنى مشمئزة جداً ، وليتك ما أخبرتنى .

قال :

ـ ظننت أن الخبر يسرك !

قالت :

ـ أيسرنى أن يأخذ إنسان أختى ميج ؟ لا . . . لقد أخطأت .

قال :

ـ قد يسرك أن يأخذك إنسان فى الوقت المناسب ؟ !

قالت چو بحدة :

ـ أحب أن أرى أحداً يحاول ذلك !

قال لورى ضاحكاً :

ـ ويسرنى أيضاً أن أرى مثل هذه المحاولة ! !

قالت چو فى جحود :

ـ إن الأسرار لا توافق مزاجى ، ولقد أربكتنى بما قلت . . .

قال لورى :

ـ سيعود إليك هدوؤك إذا هبطت معى هذا التل جرياً .

وكان الطريق خالياً من العابرين ، وسفح التل ينحدر ناعماً معبداً ، فراقت الفكرة جو ، ولم تلبث أن اندفعت إلى الأمام جرياً ، وقد خلفت وراءها قبعتها ومشطها ، ووصل لورى أولا إلى نهاية الطريق ، ولحقت به جو بعد قليل ، وقد زالت ثورة نفسها فى غمرة المجهود البدنى العنيف الذى قامت به .

قالت ، وقد توردت وجنتاها ، والتمعت عيناها سروراً :

ـ لينى كنت حصاناً ، حتى أجرى أميالا فى هذا الجو الجميل . . كانت متعة رائعة ، ولكن انظر ما فعل الجرى بى ؟ كن ظريفاً واجمع الأشياء التى سقطت منى .

وألقت الفتاة بنفسها تحت شجرة ، فرشت الأرض ببساط من أوراقها القرمزية .

وعاد لورى على عقبيه يجمع الأشياء التى سقطت من جو ، وجمعت جو غدائرها ، راجية أن لا يمر بها أحد حتى تكون قد أصلحت هندامها . ولكن رجاءها لم يتحقق ، فقد مر شخص فى اللحظة الحرجة ، ولم يكن هذا الشخص سوى أختها ميج التى كانت تسير فى أناقة ملحوظة ، بعد أن أدت بعض الزيارات لصديقاتها .

ووقعت أنظار ميج المهذبة على أختها التى بعثر الهواء شعرها وهندامها ،

وقالت فى دهشة واستنكار :

ـ ماذا تفعلين هنا بالله عليك ؟

أجابت چو ، وقد ملأت يدها ببعض الأوراق المتساقطة من الشجرة :

ـ أجمع أوراق الأشجار .

وأقبل لورى يحمل الأشياء التى سقطت من چو ، فألقى بها فى حجر صاحبتها ، وهو يقول لميج مداعباً :

ـ إنها تجمع أيضاً دبابيس الشعر ، فهذه الدبابيس تنمو على جانبى الطريق ، وكذلك تنمو الأمشاط وقبعات القش البنية اللون .

ورفعت ميج يدها إلى رأسها تصلح قبعتها وتنظم شعرها ، بعد أن عبث الهواء بهما بعض العبث ، ثم قالت تؤنب أختها :

ـ بل كنت تجرين ، وإنى أرى فيك آثار الجرى واضحة ، فكيف جرؤت على ذلك ، ومتى تكفين عن هذه الفوضى ؟

قالت چو :

ـ لن أكف عنها حتى أصير عجوزاً كسيحة أسير على عكازين دعينى استمتع بفتوتى أطول وقت ممكن ، ولا تدفعينى إلى الأخذ بأساليب الكبار قبل الأوان ، وكفانى عذاباً أن أراك تتغيرين تغيراً مفاجئاً هكذا .

وكانت چو تتكلم وهى تحنى رأسها ، لتخفى ارتجاف شفتيها الواضح ، فقد كان يحزنها فى العهد الأخير أن ترى ميج تدخل فى طور الشباب سريعاً ، وتتقدم حثيثاً نحو النضج النسوى ، ثم جاء سر لورى ،

فزادها خوفاً من أن تتزوج ميج فى يوم من الأيام فتفارقها . وقد رأى الصبى رجفة چو ، وخشى أن تراها ميج بدورها ، فقال يشغلها بالحديث :

ـ أين كنت بهذه الثياب الأنيقة الجميلة ؟

قالت : ـ كنت فى زيارة آل جاردنر ، وقد حدثتنى سالى بتفاصيل عرس بيل موفات . . . كان عرساً رائعاً ، سافر العروسان بعده لقضاء شهر العسل فى مدينة باريس . . فتصور هذه المتعة ! !

سألها لورى :

ـ أتغبطينها على حظها يا ميج ؟

قالت :

ـ أظن ذلك .

قالت چو بلهفة ، وهى تربط شريط قبعتها :

ـ يسرنى أن أسمع منك هذا الكلام .

وبدت الدهشة على ميج ، فسألت أختها تقول :

ـ ما الذى يسرك فى كلامى ؟

قالت چو :

ـ إذا كنت تغبطين الفتاة على ثرائها ، وتقدرين المال هذا التقدير كله ، فلن تجرى وراء رجل فقير ، وتتزوجيه .

قالت ميج بلهجة الوقار :

ـ لن أجرى وراء أحد للزواج !

وضحك رفيقاها ، وسارا خلفها إلى البيت يتقاذفان بالحصى وأوراق الأشجار ، كما يفعل الصغار على حد تعبير ميج ، وإن كانت الفتاة فى قرارة نفسها تود أن تشاركهما فى مرحهما ، ولا يحول بينها وبين ذلك غير ثوبها الأنيق الذى ترتديه .

ومضى أسبوعان ، وتصرفات چو كلها غرابة ، حتى انزعجت أخواتها لأحوالها العجيبة ، وبتن فى قلق لما أصابها ، فقد كانت تجرى إلى الباب كلما سمعت جرسه يدق ، وتتوقح على مستر بروك دون مبرر ، وإذا رأته يختلس النظر إلى وجه ميج ، نهضت فجأة من مجلسها ، وانحنت على أختها تقبلها بلهفة ، كأنها تخشى أن تفقدها . وكانت تبادل لورى الإشارات خفية فى بعض الأحيان ، حتى أعلنها أخواتها بأنها وصديقها قد أصابتهما لوثة أفسدت عقليهما .

وبعد أسبوعين من اليوم الذى خرجت فيه چو بمخطوطاتها إلى الناشر كانت ميج تجلس بجوار نافذة غرفتها تطرز ، فأزعجها أن ترى لورى يجرى فى الحديقة وراء چو ، ويلاحقها فى كل ركن تلجأ إليه ، ثم يتماسكان وهما يضحكان عالياً .

وبدا الألم على وجه ميج ، وقالت فى تنهدة وأسف :

ــ ماذا نفعل بهذه الفتاة الطائشة ؟ ومتى تأخذ بأساليب السيدة الصغيرة المهذبة ؟ !

وكان يسىء بث أن تخفى چو ــ أختها المفضلة ــ أسرارها عنها ،

ولكنها أخفت استياءها ، وقالت تدافع عن أختها :

ـ أرجو أن لا تفعل ذلك ، فهى لطيفة عزيزة كما هى الآن .

وقالت آمى ، وقد عقصت شعرها بشكل جميل ، وانشغلت فى إعداد قطعة من الأهداب « الفرنشا » لثوبها ، مما جعلها تشعر بأنها قد أصبحت سيدة صغيرة أنيقة :

ـ لن نستطيع أن نجعلها مهذبة !

ولم تمض دقائق ، إلا واندفعت چو إلى الغرفة ، واستلقت على الأريكة ، وهى تتظاهر بقراءة مجلة فى يدها .

قالت ميج بتواضع :

ـ أبالمجلة ما يسلينا ؟

أجابت چو ، وهى تخفى اسم الجريدة بيديها :

ـ ليس بها سوى قصة ، لا تستحق الذكر .

قالت آمى بوقار الكبار :

ـ الأفضل أن تقرئيها لنا لتسلينا ، وتشغلى نفسك عن خلق المتاعب .

قالت بث ، وقد أدهشها أن تخفى چو وجهها وراء المجلة :

ـ ما عنوان القصة ؟

قالت :

ـ الرسامان الغريمان .

قالت ميج :

ـ إنه اسم جذاب ، فاقرئى لنا القصة .

وتنحنحت چو استعداداً ، ثم بدأت تقرأ بسرعة ، والفتيات يصغين لقراءتها باهتمام ، فقد كانت القصة عاطفية محزنة ، تنتهى بموت أبطالها جميعاً . . .

قالت آمى عندما انتهت أختها :

ـ لقد أعجبتنى القطعة الخاصة باللوحة .

وقالت ميج ، وهى تمسح الدموع عن عينيها :

ـ إنى أفضل الموقف الغرامى ، ومن العجيب أن اسمى ڤيولا وأنچيليه من الأسماء المألوفة لنا .

قالت بث ، وهى تتأمل وجه أختها :

ـ من ألف هذه القصة ؟

واعتدلت چو فى مجلسها لهذا السؤال ، وألقت بالمجلة جانباً ، وقالت فى صوت عامر بالحماسة والجد :

ـ أختكن !

هتفت ميج ، وقد سقط تطريزها من يدها :

ـ أنت التى ألفت هذه القصة ؟

قالت آمى فى نغمة الناقد الفنى :

ـ قصة رائعة بمعنى الكلمة .

أما بث ، فقد غلبتها الحماسة لنجاح أختها المفضلة ، فأسرعت إليها

تحتضنها وتقبلها وهى تقول :

ــ كنت واثقة من ذلك كل الثقة ، وأنا فخورة بك يا چو .

وشاعت الغبطة ، واستبد السرور ، وأبت ميج أن تصدق الخبر العظيم ، حتى قرأت بعينيها اسم أختها مطبوعاً فى المجلة . وجعلت آمى تبدى انتقاداتها البريئة بروح الفنانة ، ثم تقترح زيادات يستحيل تحقيقها بعد أن مات أبطال القصة كلهم . وغلبت الحماسة بث ، فراحت تدور فى الغرفة ، وهى ترقص طرباً وتغنى . وانتشر الخبر فى أرجاء البيت ، فأقبلت الطاهية حنا مهنئة ، واغتبطت مسز مارش بما أصاب ابنتها من نجاح يبشر بمستقبل عظيم . ودارت مجلة «النسر الطائر» من يد إلى يد ، فتضاعف سرور أهل البيت وفخرهن .

والتف أفراد الأسرة حول چو يسألونها ضاحكين :

ــ حدثينا بما جرى . . متى فعلت ذلك ؟ وكم تقاضيت ثمناً لها ؟ . . ترى ماذا يقول أبونا إذا عرف ؟ وكم سيضحك لورى للخبر ! !

هتفت بهم چو ، وقد خيل إليها أن أعظم كاتبات أمريكا لا يمكن أن تكون قد أصابت مثل هذا النجاح العظيم :

ــ كفى ثرثرة يا بنات ، وسأحدثكن بكل شىء .

وروت لهن چو كيف كتبت قصتين سراً ، وكيف قدمتهما لصاحب المجلة ، فوعدها بإبداء رأيه فيهما بعد أسبوع ، ثم قالت :

ــ وعندما ذهبت إليه أسأله رأيه ، أبدى إعجابه بالقصتين ، ولكنه

اعتذر من الأجر ، وأفهمنى أن المبتدئين لا يتقاضون أثماناً لكتاباتهم ، مكتفين بالنشر الذى يأتيهم بالشهرة تدريجاً . وأكد لى أن الكتابة مجاناً ، مرانة طيبة حتى يعرف اسمى بين القراء ، وإذ ذاك لن يتردد ناشر عن شراء مؤلفاتى . لقد أكد لى رضاه عن القصتين ، ووعد بالدفع فى القصص المقبلة ، وأنا سعيدة جداً لما حدث ، وأملى أن أكسب من قلمى ما يقوم بأودى ، ويعينكن على الاستمتاع بحياة أفضل .

وتقطعت أنفاس چو لفرط تأثرها ، فأخفت وجهها بين طيات المجلة ، وهى تذرف دمـــوع الفرح ، فقد كانت أعظم أمانيها فى الحياة أن تعتمد فى حياتها على جهودها ، وتنال تقدير أسرتها العزيزة الحبيبة . وخيل إليها فى هذه اللحظة أنها خطت الخطوة الأولى نحو النهاية السعيدة المبتغاة .

الفصل الخامس عشر

البرقية

وقفت مارجريت تتطلع من نافذتها إلى الحديقة التى أجدبها برد الشتاء وصقيعه ، وقالت :

ـ إن نوفمبر أسوأ شهور السنة كلها .

فقالت چو مفكرة ، وهى لا تحس ببقعة الحبر التى علقت بأنفها :

ـ لعل السبب أننى ولدت فى هذا الشهر .

وكانت بث متفائلة بطبعها ، تتعلق بالأمل وتستبشر بالحياة ، حتى

فى شهر نوفمبر المقبض ، فقالت :

ـ لو أن حدثا سارا جاء فى هذا الشهر ، فسوف نعتقد أنه شهر رائع .

وكانت ميج فى ذلك اليوم ضيقة الصدر متشائمة ، فقالت :

ـ ربما . ولكنى لا أرى شيئاً يفرح أو يسر فى حياة هذه الأسرة ، فنحن نكد ونكدح يوماً بعد يوم ، والسنون تمر بنا على وتيرة واحدة ، لا تتغير ولا تتبدل ، ولسنا ننال ترفيها ولا تسلية . نحن كمن يعيش فى طاحونة لا تكف عن الدوران .

فصاحت بها چو تقول :

ـ صبراً . . . صبراً ! . إننا نتشاءم دائماً ! لا يدهشنى أن تتبرمى بحياتك الشاقة وأنت ترين غيرك من الفتيات يتمتعن بكل شىء . كم أتمنى أن أقدم لك بعض ما أقدمه لبطلات قصصى من ألوان المتعة والرفاهية . إنك جميلة الشكل سوف تنالين كل ما تشتهين ، فستسافرين إلى الخارج فى رحلات طويلة ، ثم تعودين إلينا أرستقراطية عليك هالة من العظمة والأناقة .

فقالت ميج فى مرارة .

ـ إن الثروات المفاجئة لا تهبط على الناس فى أيامنا هذه ، وعلى الرجال أن يكدحوا فى سبيل الرزق ، وعلى النساء أن يتزوجن من أجل لقمة العيش . إننا نعيش فى دنيا ظالمة .

وكانت آمى تقبع فى جانب من الغرفة وبيدها قطعة من الصلصال تصنع منها تماثيل صغيرة لبعض الطيور والفاكهة . ولم تكن التماثيل على شىء من الجمال ، حتى إن حنا كانت تسميها الفطائر الطينية لشدة بشاعتها . وسمعت آمى حديث أختها ، فقالت تطمئنها :

ـ سأكوِّن لك أنا وچو ثروة طائلة ، فانتظرى عشر سنوات ، وسترين بعدها العجب !

قالت ميج :

ـ لا طاقة لى على الانتظار طول هذه المدة ، ويؤسفنى أننى قليلة الثقة بقلم چو وصلصالك . ولكنى أشكر لك حسن نياتك على كل حال .

ثم تنهدت وأدارت وجهها إلى النافذة التى علق بها الصقيع ، وأسندت چو مرفقيها إلى المائدة مزمجرة ، وعادت آمى إلى صلصالها تعمل أصابعها فيه بنشاط . وكانت تجلس عند النافذة الثانية للغرفة ، فقالت وهى تبتسم :

ـ أرى أمى مقبلة عند أول الطريق ، وأرى لورى يسرع السير إلينا ، كمن يحمل أخباراً سارة .

ودخل الاثنان ، فبادرت مسز مارش بناتها بسؤالها المعهود :

ـ ألم تأت رسالة من والدكن يا بناتى ؟

وقال لورى بلهجة مستعطفة :

ـ ألا من تصحبنى إلى النزهة ؟ إن الجو لطيف فى الخارج رغم تلبد السماء بالغيوم ، فتعالى معى يا چو وأنت يا ميج نوصل مستر بروك إلى منزله بالعربة ، ثم نطوف بها فى نزهة قصيرة .

أجابت چو دون تردد :

ـ سنذهب معك ولا شك .

وقالت ميج وهى تبحث عن شىء داخل سلة التطريز :

ـ أشكرك على دعوتك ، ولكنى مشغولة الآن .

وكان اعتذارها هذا نتيجة لرغبة أمها فى أن تقلل ما أمكن من مقابلاتها مع الشاب بروك .

وصاحت آمى وهى تهرع إلى غسل يديها تقول :

ـ سنكون على أتم استعداد فى بحر دقيقة واحدة .

وانحنى لورى نحو مقعد مسز مارش ، وقال وهو ينظر إليها بمنتهى العطف والحنان :

ـ ألا من خدمة أؤديها لك يا سيدتى الوالدة ؟

قالت :

ـ لا ، شكراً ، ولكنك إذا شئت أن تطوق عنقى بجميلك فامض لمكتب البريد لتستفسر عما إذا كانت لى رسالة فيه ، فقد تعودت أن أتلقى من زوجى خطاباً فى مثل هذا اليوم كل أسبوع ، ولكنى لم أتلق شيئاً بعد ، وعهدى بزوجى أنه دقيق فى مواعيد خطاباته ، فلعل البريد تأخر لسبب

من الأسباب .

وفى تلك اللحظة رن جرس الباب رنيناً حاداً ، ثم أقبلت حنا تحمل مظروفاً ، وقالت وهى تقدمه مرتجفة كأنما هى تخشى أن يتفجر فى يدها :

— إنها رسالة من تلك التى يسمونها برقيات .

وما إن سمعت مسز مارش كلمة برقية ، حتى اختطفتها وقرأت السطور التى احتوتها بمنتهى السرعة ، ثم غاض الدم من وجهها ، وتهالكت على مقعدها كأن رصاصة أصابتها فى قلبها . واندفع لورى إلى خارج الغرفة يحضر ماء من أسفل الدار ، وهرعت ميج وحنا إلى الأم تسندانها ، وقرأت چو البرقية فى صوت واجف ، وكانت كلماتها القليلة تقول :

« مسز مارش ، زوجك مريض جداً ، احضرى حالا .

من س . شيل

مستشفى بلانك . واشنجتون »

وفعلت البرقية عجباً فى الغرفة ، فقد خيم على الجالسين صمت مطلق ، وغشى الوجوه عبوس وشجن ، والتفت البنات حول أمهن فى ذعر على أبيهن الحبيب ، مصدر سعادتهن فى الحياة وعائلهن الوحيد .

وعندما استردت مسز مارش سيطرتها على نفسها ، عادت إلى البرقية تقرؤها من جديد ، ثم مدت ذراعيها إلى بناتها ، وقالت فى صوت عامر بالتأثر :

ـ سأذهب إليه حالا ، ولعلى أصل قبل فوات الأوان ، آه يا أطفالى ! ساعدننى وكن لى عوناً على الاحتمال .

ومضت دقائق لم يكن يسمع خلالها سوى نحيب البنات ، وقد اختلط بعبارات التشجيع والمواساة ، أو همسات الأمل التى تتلاشى بين الدموع السخية ، وكانت حنا أول من أفاق من الصدمة ، وضربت للجميع مثلا يحتذى لرجاحة العقل والثبات ، إذ قالت وهى تمسح دموعها بطرف مرولتها ، وتشد على يد سيدتها مشجعة :

ـ ليحفظ الله زوجك ويشفيه يا سيدتى ، فلا تضيعى الوقت فى النواح ، وأسرعى بإعداد حقيبتك .

وانصرفت فى عزيمة كأنها ثلاث نساء تقمصن جسد امرأة واحدة ، فقالت الأم لبناتها :

ـ إن حنا على صواب ، فليس فى الوقت متسع للدموع ، فاهدأن واتركننى أفكر قليلا .

وبينما حاول البنات المسكينات أن يعملن بنصيحتها ، جلست مسز مارش رابطة الجأش رغم شحوب لونها ، تحاول السيطرة على حزنها لتفكر فيما يجب أن تفعل .

قالت بعد قليل :

ـ أين لورى ؟

وكانت أشجان الفتيات أوجعت قلب صديقهن الحنون ، فاختلف

إلى الغرفة الأخرى وحده ، فلما سمع مسز مارش تسأل عنه ، أقبل عليها مسرعاً يقول :

ـ ها أنا ذا يا سيدتى .

قالت له :

ـ إن أول قطار يقوم صباح الغد ، فأبرق إلى المستشفى بموعد وصولى .

قال ، وقد بدا على استعداد لخدمتها وتلبية رغباتها ، حتى إذا كانت فى آخر الدنيا :

ـ وماذا تريدين أيضاً ؟ إن العربة تنتظر بالباب ، ويسرنى أن أذهب إلى أى مكان وأعمل ما تريدين .

قالت :

ـ أرجو أن تحمل رسالة إلى العمة مارش ، أعطينى يا چو قلماً وورقاً .

وأحضرت الفتاة ورقة بيضاء من كراس مذكراتها ، وسحبت منضدة صغيرة وضعتها أمام أمها . وكانت تعلم ألا مفر من اقتراض بعض المال ، حتى تستطيع أمها أن تقوم بنفقات رحلتها المحزنة ، وتمنت فى قرارة نفسها أن لو كان فى مقدورها أن تفعل أى شىء لتضيف قليلا إلى المبلغ ، فى سبيل أبيها الحبيب .

ولما انتهت مسز مارش من رسالتها ، قالت للورى :

ـ خذ هذه الرسالة يا عزيزى ، ولا داعى لأن تستميت فى الإسراع

بها ، فما زال أمامنا بعض الوقت .

ولكن الفتى لم يستمع لرجائها ، فما إن مضت خمس دقائق ، حتى كان يمتطى حصانه ، ويمر به كالسهم أمام النافذة ، فى طريقه إلى بيت العمة مارش .

وقالت الأم :

– اذهبى يا چو إلى مسز كنج واعتذرى لها من عدم حضورى ، وفى عودتك أحضرى الأشياء المكتوبة فى هذه الورقة ، فإن المستشفيات فى هذه الأيام غير كاملة الاستعداد ، وربما احتجت إلى بعض العقاقير فى تمريض أبيك ، وأنت يا بث اذهبى إلى مستر لورنس واطلبى منه زجاجة نبيذ معتق ، فإنى أحب أن أقدم لأبيك أحسن الأشياء ، ولو اضطرنى الأمر إلى التسول فى الطرقات . وأنت يا آمى قولى لحنا أن تأتينى بحقيبتى السوداء ، أما أنت يا ميج فعليك أن تساعدينى فى جمع حاجاتى لأننى فى أشد الاضطراب .

وكان خليقاً بالسيدة أن تضطرب ، وعقلها موزع بين الكتابة والتفكير ، وإصدار الأوامر ، فرجتها ميج أن تجلس فى غرفتها هادئة ، وتترك لهن العمل . وانتشر البنات فى أرجاء البيت ، كما تنتشر أوراق الخريف فى يوم عاصف ، واختفى السكون والهدوء عن البيت السعيد ، كأنما كانت تلك البرقية نذير شؤم وشر .

وجاء مستر لورنس العجوز مع بث مسرعاً ، وكان يحمل معه

كل ما يراه مفيداً للمريض ، وطمأن الأم إلى أنه سيرعى البنات فى غيابها ، وبذلك أدخل على قلبها راحة واطمئناناً . ولم يقف فى سخائه عند حد ، فقد أعطاها معطفه ليقيها من البرد ، وأبدى منتهى استعداده لمرافقتها فى رحلتها ، ولكنها أبت عليه أن يتحمل هذه المشقة ، وإن كانت تتمنى فى قرارة نفسها من يعينها على وعثاء السفر ، ويقويها على احتمال متاعب الرحلة الطويلة . ورأى السيد العجوز ما ارتسم على وجهها ، فقطب حاجبيه وفرك كفيه ، ثم انصرف عن الحجرة هادئاً . ولم ينتبه أحد لخروجه ، ولم يفكر فيه ، إلى أن أقبلت ميج تجرى وقد حملت فى إحدى يديها حذاء أمها المطاط ، وفى الأخرى فنجاناً من الشاى .

وما إن ولجت الباب حتى رأت فجأة مستر بروك يقف بمدخل الدار . قال لها فى صوت هادئ عطوف بعث بعض الطمأنينة إلى قلبها الحائر :

ـ تألمت كثيراً لتلك الأخبار السيئة يا آنسة مارش ، وقد جئت أقدم نفسى راجياً أن تسمح لى والدتك بمرافقتها فى سفرها ، ومن دواعى راحتى وسعادتى أن تقبل منى هذا الرجاء .

وسقط الحذاء من يد الفتاة ، وكاد الشاى ينسكب من يدها الأخرى وتورد وجهها اعترافاً بجميله ، ومدت يدها إليه تصافحه شاكرة . وكان مستر بروك يعتبر هذه اليد مكافأة عظيمة تزيد كثيراً على تضحيته الصغيرة ببعض مجهوده ووقته .

قالت الفتاة :

ـ يا للعطف والكرم ! لست أشك فى أنه يسر أمى أن تسافر فى رفقتك ، ولا أظن إلا أنها ستنال كل الراحة معك ، فشكراً لك ، شكراً جزيلا .

وكانت ميج تتحدث بإخلاص وحرارة أنستها نفسها ، ولكن شيئاً فى تلك العيون العسلية التى تنظر إليها ، جعلها تذكر فنجان الشاى الذى كاد يبرد فى يدها ، فقادت الضيف إلى الردهة ، وذهبت تنبئ أمها بقدومه .

وعاد لورى من عند العمة مارش ، يحمل المبلغ المنشود ، مع رسالة تعيد فيها ما سبق أن قالته مراراً ، من أنها كانت سخافة من مستر مارش أن يلتحق بالخدمة العسكرية التى لن تعود عليه بالخير ، وأنها تأمل أن يستمع لنصحها فى المرة القادمة . وألقت مسز مارش الرسالة فى الموقد ، وأودعت النقود حقيبتها ، وراحت تكمل استعدادها ، وقد زمت شفتيها ، دليل ثورتها النفسية المكبوتة .

ومضى عصر ذلك اليوم الحزين ، وقد أدى كل عمله على أكمل وجه ، ثم جلست ميج مع أمها تحوك الأشياء الضرورية ، وعكفت آمى وبث على إعداد الشاى ، وانتهت حنا من كى الملابس . وقد حدث ذلك كله ، وچو لم تعد إلى البيت بعد ، مما بعث القلق فى نفوس أمها وأخواتها ، لأنها لم تكن قد أخبرت أحداً بوجهتها ، فخرج لورى يبحث عنها وهو يسأل نفسه : أية فكرة عجيبة تملكت رأس

الفتاة ؟ ولكن بحثه ذهب عبثاً ، فما إن انصرف عن البيت يبحث عنها ، حتى أقبلت من طريق آخر تسير مسرعة ، وفى عينيها نظرة عجيبة يمتزج فيها الخوف بالسرور ، ويختلط الرضا بالندم . وتوجهت إلى أمها مباشرة ، وقدمت لها رزمة من الأوراق المالية ، وقالت بصوت مختنق بالتأثر :

— هذا نصيبى من واجبنا نحو أبى ، فأرجو أن تستعينى به على توفير بعض الراحة له ، حتى يعود .

قالت الأم فى دهشة بالغة :

— خمسة وعشرون ريالا ! كيف أتيت بها ومن أين ؟ أرجو أن لا تكونى قد أتيت عملا طائشاً لتحصلى عليها يا چو ؟

قالت الفتاة :

— لا . إنه مال حلال ، لم أتسوله ولم أقترضه ولم أسرقه ؛ إنما جئت به عن أشرف الطرق وأنظفها ، ولن يلومنى أحد إذا كنت قد بعت شيئاً أملكه .

ورفعت قبعتها عن رأسها ، فبان شعرها وقد قصته قصيراً جداً ، فتصايح أخواتها ، وقالت أمها فى انزعاج شديد :

— شعرك ! شعرك الجميل ! كيف جرؤت على قصه يا چو ؟ إنه الشىء الجميل الوحيد فيك ! لم نكن فى حاجة إلى هذه التضحية يا بنيتى العزيزة ؛ ولكنى ازددت لك حباً بما فعلت .

وبينما الأسرة فى هرج ومرج لما فعلته چو بشعرها ، قامت بث إلى

أختها الحبيبة تحتضنها فى إعزاز وحنان ، وتمر بيدها الرقيقة على رأسها ، كأنها تريد بذلك أن تعبر لها عن تقديرها العظيم لتضحيتها الغالية . فقالت چو وهى تثير بيدها شعرها القصير وتتظاهر بعدم الاكتراث :

ـ كفى نواحاً يا بث ، فلن يصيب الوطن ضرر مما جرى . كان غرورى بشعرى قد بدأ يقهرنى ، فرأيت من صالحى أن أقصه . لقد خففت الحمل عن رأسى ، وسوف ينشط عقلى بزوال هذه المعرفة ، كما أنى أحس بطراوة الجو وجماله . لقد أكد لى الحلاق أن شعرى لن يلبث أن ينمو سريعاً ، فتظهر به تجاعيد جديدة ، تجعله صبيانياً أنيقاً ، سهل الترتيب والتنظيف . إنى راضية بما حدث فأرجو أن تتقبلى النقود يا أماه ، وهيا بنا إلى العشاء .

قالت مسز مارش :

ـ أما أنا فغير راضية عما فعلت يا چو ، ولست ألومك ، لأنى أعرف مدى استعدادك للتضحية بكبريائك فى سبيل من تحبين . لم يكن من الضرورى أبداً أن تقصى شعرك ، وأخشى أن يلحقك الندم فى يوم من الأيام ، فأخبرينى بكل ما جرى .

قالت چو فى كبرياء ، وقد اطمأنت إلى أن فعلتها لم تلق رفضاً على طول الخط :

ـ لا ، لن أخبرك يا أماه .

وقالت آمى ، وكان أهون عليها أن تقطع رقبتها من أن يقص شعرها

الجميل :

ـ ما الذى دفعك إلى فعل ذلك ؟

قالت چو ، وقد التأم شمل الأسرة حول مائدة الطعام ، وجلس البنات ـ كشأن الشباب ـ يأكلن بشهوة رغم أحزانهن :

ـ انتابتنى رغبة صارخة فى أن أساهم بشىء فى معونة أبى على الشفاء ، ولما كنت كأمى أمقت القروض ، وأعلم أن العمة مارش سترفض معونتنا لشحها ، وكانت ميج قد ساهمت بمرتبها فى دفع أجرة البيت ، لذلك بحثت عن شىء أبيعه ، فلم أجد سوى ملابس قليلة ، فأشقانى شعورى بالعجز ، ولم أجد أمامى سبيلا إلى الحصول على المال سوى أن أجدع أنفى وأبيعه .

فقالت مسز مارش وهى تلقى عليها نظرة حنان أفعمت قلب الفتاة بالسعادة :

ـ ما كان يجدر بك أن تشقى يا بنيتى ، فإن راتبك الضئيل لم يسمح لك بشراء ملابس هذا الشتاء رغم احتياجك الشديد إليها .

قالت :

ـ لم يجل بخاطرى أول الأمر أن أبيع شعرى ، ولكن بينما كنت أسير فى الطريق ، وأنا أفكر فيما يمكننى عمله ، وأتمنى لو كان فى مقدورى أن أدخل حانوتاً من تلك الحوانيت الأنيقة ، أغترف منه ما أريد ، مررت بمحل حلاق ، ورأيت فى واجهته جدائل سوداء مستعارة ، ليس فيها

ما يضارع جدائلى جمالا وطولا ، ومع ذلك كان ثمن الواحدة منها أربعين ريالا ، وعندئذ واتتنى الفكرة ، واستقر رأيى على أن أبيع شعرى من أجل أبى . ولم أقف لأفكر فى الأمر ، بل اندفعت إلى داخل المحل مسرعة ، وسألت الحلاق إن كان يشترى شعرى وكم يدفع ثمناً له .

فقالت بث فى صوت ملىء بالهلع :

ــ لست أدرى كيف جرؤت على ذلك ؟

قالت :

ــ كان الحلاق رجلا صغير الحجم ، بالغ الأناقة ، يصفف شعره ويلمعه بالدهون ، فوقف يحملق فىّ أول الأمر ، كما لو كنت أول فتاة اقتحمت عليه محله لتبيعه شعرها ، ثم قال إن لون شعرى كثير فى السوق ، وإعداده للبيع يتكلف غالياً ، إلى غير ذلك من العبارات المقبضة . وكان الوقت قد تأخر بى ، فخشيت إن طال الجدل بيننا أن أعدل عن بيع شعرى ، وهو مالا أريده أمام رغبتى الجارفة فى تحقيق غرضى بأى شكل كان ، ولذلك شرعت أرجوه وأستعطفه أن يشتريه ، وفى غمرة انفعالى سردت عليه لماذا أريد النقود . كانت سخافة منى ولا ريب ، ولكن الانفعال الذى تملكنى وأنا أحدثه عن والدى أثر فيه ، فعدل عن رأيه ، كما أن زوجته سمعت حديثى ، فقالت فى رقة : « خذه يا توماس إرضاء للسيدة الصغيرة ، لو كنت مكانها ما ترددت فى التضحية بشعرى من أجل چيمى ، وما توانيت عن بيعه إذا كان

يساوى شيئاً » .

وكانت آمى بطبعها تهتم بالتفاصيل ، فقالت :

– ومن يكون چيمى هذا ؟

قالت چو :

– إنه ابنها الذى تطوع فى الجيش ، وقد قربنى إلى قلبها تشابه ظروفنا ، وأزال الكلفة بينى وبينها ، فجعلت المرأة تحدثنى وتلهينى عن التفكير فى أثناء قيام زوجها بقص شعرى .

فسألتها ميج وبدنها يقشعر لهول الوصف :

– ألم تشعرى بفظاعة الأمر عندما قص أول خصلات شعرك ؟

قالت :

– ليس من عادتى أن أنوح على صغائر الأمور ، ولذلك اكتفيت بأن ألقيت على شعرى نظرة وداع قبل أن يعمل الحلاق فيه بمقصه ، ولكنى شعرت بغصة فى حلقى عندما رأيت جدائلى على المائدة ، وخيل إلىّ أننى بترت ذراعى أو ساقى ، ورأتنى زوجته أتطلع إلى شعرى فى أسف وحسرة ، فتناولت منه خصلة وقدمتها لى تذكاراً . وسوف أعطيك إياها يا أماه كى تذكرك بمجد شعرى الزائل ، فلست أعتقد أننى سأرسله على ظهرى مرة أخرى ، كما كنت أفعل فيما مضى . إن الشعر القصير مريح للغاية على كل حال .

وطوت مسز مارش الخصلة الكستنائية المتموجة ، ووضعتها فى

درجها إلى جانب خصلة أخرى من الشعر الأشيب القصير ، ثم قالت :

– شكراً لك يا عزيزتى .

وكان فى صوتها رنة حزن دفين ، جعلت الفتيات يغيرن موضوع الحديث ، ويتكلمن فى مرح مصطنع عن لطف مستر بروك ، وأملهن أن يكون الجو صحواً فى اليوم التالى ، ثم الأوقات السعيدة التى تنتظرهن عندما يعود أبوهن إلى البيت فى دور نقاهته .

ولم تبد واحدة رغبتها فى النوم ، حتى وافت الساعة العاشرة ، فوضعت مسز مارش أدوات التطريز فى سلتها ، ثم دعت البنات إلى الغناء ، وجلست بث إلى المعزف توقع عليه أحب أنشودة إلى أبيها . ووقف أخواتها حولها يغنين بشجاعة ، ولكنهن سكتن الواحدة بعد الأخرى حتى لم يعد يسمع سوى صوت المعزف ومعه بث تغنى بكل قلبها ، فقد كانت الموسيقى دائماً وسيلتها إلى السلوان والعزاء .

ولما انتهى النشيد ، قالت مسز مارش ، وقد لاحظت عزوف بناتها عن الغناء :

– هيا إلى أسرتكن ، فعلينا أن نستيقظ مبكرات ، وأخشى أن يأخذنا النوم إذا أطلنا السهر . سعدتن مساء أيتها العزيزات .

وفى هدوء وسكون قبل الفتيات أمهن ، ثم انصرفن إلى أسرتهن فى صمت ، كأن أباهن المريض يرقد فى الحجرة المجاورة . وسرعان ما غرقت آمى وبث فى نومهما ، رغم هموم اليوم وأحزانه ، ولكن ميج ظلت ساهرة

تفكر فى أمور جدية ، لم يسبق أن خطرت لها على بال من قبل . ورقدت چو ساكنة بلا حراك ، فظنتها أختها نائمة ، حتى أفلتت منها نوحة مكبوتة ، جعلت ميج تنهض إليها وتمد يدها إلى خدها لتجده مبللا بالدموع . قالت :

ــ ماذا بك يا عزيزتى چو ؟ أتبكين من أجل أبى ؟

قالت :

ــ لا . لست أبكى الآن من أجله .

قالت :

ــ لماذا تبكين إذاً ؟

قالت چو :

ــ شعرى .

وانفجرت المسكينة تبكى فى حرقة وهى تحاول أن تخفى عبراتها فى وسادتها . ولم يكن فى ذلك ما يسر ميج ، فانحنت على أختها تضمها بين ذراعيها مشجعة مواسية .

قالت چو ، والعبرات تخنقها :

ــ لست نادمة على ما فعلت ، ولن أتردد فى فعله مرة أخرى ، إنما هى كبريائى الفارغة تستدرج هذه العبرات السخيفة . لن أبكى بعد الآن ، فلا تخبرى أحداً ، ولكن ، ما الذى أبقاك ساهرة إلى الآن ؟ لقد ظننتك نائمة ، فأطلقت أنة صغيرة من أجل جمالى الضائع .

قالت ميج :

– إن القلق يسهدنى .

قالت چو :

– اسرحى بخيالك فيما يسر يعاودك النوم حالا .

قالت :

– لقد حاولت ذلك فزاد بى الأرق .

قالت :

– وفيم كنت تفكرين ؟

قالت ميج وهى تبتسم لنفسها فى الظلام :

– فى وجوه وسيمة ، ذات عيون جميلة .

قالت چو :

– وما لون العيون الذى تفضلينه ؟

قالت :

– العسلية . . أقصد الزرقاء فى بعض الأحيان تعجبنى .

وضحكت چو ، فنهرتها ميج وأمرتها أن تكف عن الكلام ، ثم عادت فوعدتها بأن تجعد لها شعرها القصير . وما لبثت ميج أن غلبها النعاس ، لتحلم بالحياة فى قصرها الذى بنته فى الهواء .

وبينما كانت الساعة تدق معلنة منتصف الليل ، انسل شبح فى هدوء وسكون ، وجعل يطوف من فراش إلى فراش ، يسوى الغطاء على

هذا ، ويعدل وسادة فى ذلك ، ويقف ممعناً بعض الوقت فى الوجه النائم ، ثم يطبع عليه قبلة خفيفة من شفاه ساكتة ، ويدعو الله فى صلاة حارة ، لا تنطلق إلا من صدر أم حنون . ورفعت مسز مارش جانباً من الستائر ، وسرحت ببصرها فى الليل الساكن ، وفجأة برز القمر من وراء السحب المعتمة ؛ وألقى ضوءه الفضى من قرصه اللامع البراق الذى بدا كأنه يهمس قائلا :

ــ ليطمئن قلبك العزيز ، إن الغيوم لن تلبث أن تنقشع ، فينبلج النور بعد الظلام .

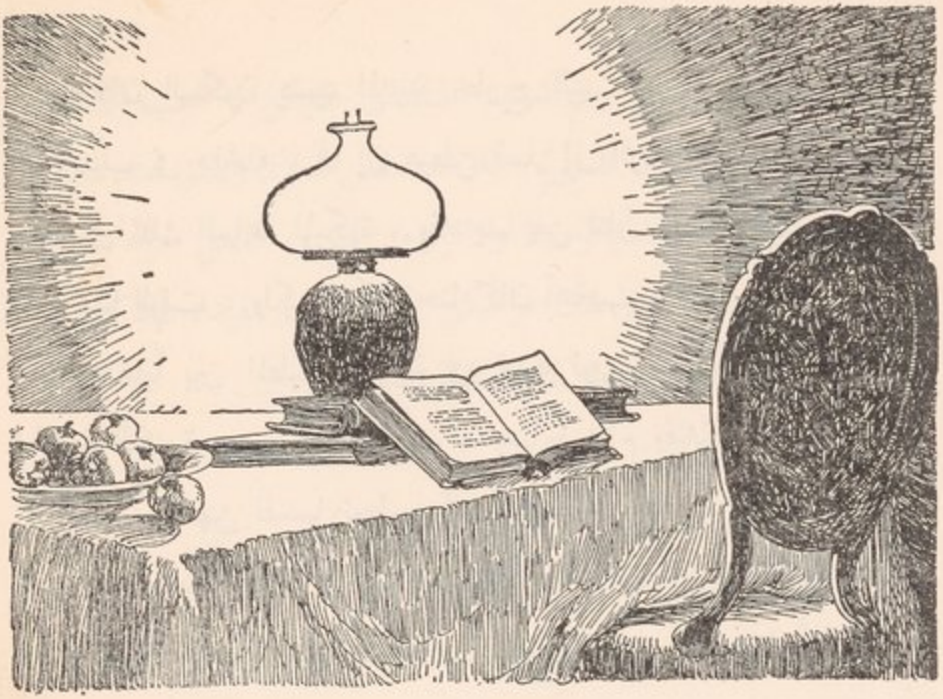

الفصل السادس عشر

رسائل

استيقظ الفتيات مع عتمة الفجر البارد ، فأضأن المصباح ورحن يصلين فى إيمان خاشع ، لم يسبق لهن أن شعرن بمثل شدته . إذ كانت هذه أول مرة يتهددهن فيها خطر حقيقى ، وأدركن معه عظم النعمة التى كانت تملأ حياتهن من قبل . وبعثت الصلاة راحة فى قلوبهن ، فارتدين ثيابهن وقد استقر رأيهن على أن يودعن أمهن فى بشر وتفاؤل ، حتى لا يزدن همومها بالبكاء ، فتبدأ رحلتها مطمئنة النفس راضية .

وكان السكون يسود المدينة خارج البيت ، على عكس الحركة التى تدب فى داخله ، فما إن هبطن السلم إلى الردهة حتى رأين الإفطار معدا فى تلك الساعة المبكرة ، وقد بدا لهن تناول الطعام أمراً عجيباً فى مثل هذا الوقت ، ولكن شكل حنا كان أعجب وأغرب ، وهى تسرع جيئة وذهاباً بين المطبخ والردهة فى ثوب نومها وقلنسوة رأسها . ورأين الحقيبة الكبيرة معدة بجوار الباب ، وعباءة الأم وقبعتها موضوعتين على الأريكة ، وأمهن نفسها تجلس أمام مائدة الإفطار ، وهى تحاول أن تغرى نفسها بالأكل ، ولكنها كانت ممتقعة اللون لطول الأرق والقلق ، فكان عسيراً على البنات أن يتظاهرن بالهدوء والمرح ، بعدما رأين فى سيما الأم من صور الألم والشجن . واغرورقت مقلتا ميج بالرغم منها ، واضطرت چو أكثر من مرة أن تخفى وجهها وراء أدوات الطعام التى تحملها ، أما الصغيرتان فقد اكتسى وجهاهما بغشاوة من الوجوم الشديد ، وكأنهما تجربان شعور الحزن لأول مرة .

وجلسن فى انتظار العربة هادئات ، ولم يتبادلن سوى كلمات قليلة ، فلما اقترب موعد الرحيل ، قالت مسز مارش لبناتها اللواتى شغلن بأمرها : هذه تصلح شالها ، وتلك تسوى شرائط قبعتها ، وثالثة تلبسها حذاءها ، ورابعة تقفل حقيبة يدها :

— إنى أترككن يا أطفالى فى رعاية حنا وحماية مستر لورنس ، فطاهيتنا أصدق مثل للإخلاص ، وجارنا خليق بأن يمنحكن رعاية الأب

الحنون وحمايته ، ولكننى رغم شديد اطمئنانى عليكن ، أحب أن تحسن التصرف فى هذا الظرف السيئ ، فلا تستسلمن للحزن والقلق عند ذهابى ، أو تهربن من الأحزان بالوحدة والانزواء . إن فى العمل عزاء كريماً ، فاعملن بجد واجتهاد ، واملأن فراغكن بكل طيب مفيد ، واذكرن دائماً أن شقاوة لن تصيبكن مهما كانت الظروف .

قالت الفتيات :

ـ سنطيعك فى كل ما تريدين يا أماه .

قالت الأم :

ـ أنت يا عزيزتى ميج ، كونى حريصة وراقبى أخواتك ، واستشيرى حنا فى كل ما يشكل عليك ، وإذا استعصت عليك المشورة فاذهبى إلى مستر لورنس . وأنت يا چو ، لا تكونى ضيقة الصدر ، ولا تنسى ضبط النفس ، وعليك أن تكتبى إلىّ بالأخبار دائماً ، وكونى شجاعة مرحة لتعاونى أخواتك على الاحتمال . وأنت يا بث ، اطلبى العزاء فى معزفك ، فالموسيقى أطيب غذاء لنفسك ، وكونى أمينة فى أداء واجباتك المنزلية الصغيرة . أما أنت يا آمى ، فابذلى المساعدة ما أمكنك وكونى مطيعة ، وابقى فى البيت سعيدة آمنة .

أجاب الفتيات :

ـ سنفعل ما تأمرين به يا أماه .

وتعالى فى الطريق ضجيج عربة قادمة ، فأجفل البنات وأرهفن

السمع ، لاقتراب اللحظة العصيبة . ولكنهن ثبتن أمام لوعة الوداع ، فلم تبك واحدة منهن ، أو تنطق بكلمة محزنة ، رغم ما أثقل قلوبهن من هم . وأوصين أمهن بأن تحمل لأبيهن عبارات الشوق والحب ، على الرغم مما جال بخواطرهن ، من أن تلك العبارات قدلا تصل إليه أبداً .

وكان مستر لورنس وحفيده قد حضرا لتوديعها أيضاً ، وكان مستر بروك يبدو قوياً رزيناً عطوفاً ، حتى قال الفتيات إنه صورة للسيد المهذب الطيب .

ولاذ الفتيات بصدر أمهن مودعات فى هدوء ، فهمست مسز مارش وهى تقبل الوجوه العزيزة واحداً بعد الآخر ، قبل أن تصعد إلى العربة :

— إلى اللقاء يا عزيزاتى ! وليباركنا الله ويحفظنا جميعاً .

وتظاهر الفتيات بالبشر ، ورفعن أيديهن مودعات ، وكانت مسز مارش تطل عليهن من نافذة العربة ، فظل وجهها ماثلا حتى طواها الطريق ، وعندئذ برزت الشمس فوق الأفق ، كأنها تبشرهن بالخير ، وألقت نورها على الجماعة التى تقف أمام باب الدار ، ورأتها الجماعة فابتسموا وهتفوا متفائلين . وكان آخر ما رأته الأم أربعة وجوه صبيحة ، من خلفها يقف مستر لورنس العجوز ، وحنا المخلصة ، ولورى الصديق العزيز ، كأنهم حرس يقوم على حماية بناتها العزيزات .

والتفتت مسز مارش إلى رفيقها فى العربة ، فرأت فى وجهه الفتى معانى جديدة ، كلها عطف واحترام ، قالت :

ـ لقد غمرتمونا بعطف شديد .

فضحك مستر بروك ضحكة لطيفة ، لم تتمالك السيدة معها إلا أن تبتسم . قال :

ـ هذا أقل ما يجب .

وهكذا بدأت الرحلة الطويلة بشمس مشرقة ، وبسمات طيبة ، وكلمات رقيقة مشجعة .

وعندما ذهب مستر لورنس وحفيده إلى بيتهما لتناول الإفطار ، قالت چو :

ـ إنى أشعر كأنما قد زلزلت الأرض زلزالها .

وقالت ميج فى وجوم :

ـ وأنا أحس بأن نصف ما فى البيت قد ذهب .

وفتحت بث فمها لتقول شيئاً ، ولكنها توقفت وأشارت بيدها إلى مجموعة من الأحذية اصطفت فوق منضدة أمها فى عناية ونظام ، كأنها تريد بهذه الإشارة أن تؤكد لأخواتها أنها قامت بواجبها ، رغم همومها وأحزانها . وكان جهداً تافهاً فى حد ذاته ، ولكن معناه الجميل لمس قلوب أخواتها ، فانهارت مقاومتهن دفعة واحدة ، وانفجرن فى عاصفة من البكاء المرير .

ورأت حنا أن تتركهن يفرغن بالبكاء أحزانهن ، فسكبن الدمع مدراراً ، حتى هدأت العواصف فى قلوبهن ، وعندئذ فقط أقبلت الطاهية

الطيبة تحمل إبريقاً عامراً بالقهوة الساخنة ، ثم قالت :

ـ والآن يا سيداتى العزيزات ، تذكرن نصيحة أمكن ، واتركن الحزن والبكاء ، وهيا إلى القهوة ، ولنغرق بعدها أنفسنا فى العمل ، لنكون جديرات باسم هذه الأسرة .

وكانت حنا قد بذلت فى صنع القهوة مجهوداً عظيما ، فجاءت لذيذة الطعم جميلة النكهة ، وكانت أبخرتها المشبهة أعظم محرض للفتيات على شربها ، فجلسن إلى المائدة يملأن فناجينهن من الأبريق ، ويكفكفن الدمع بالمناديل والفوط . ولم تمض دقائق عشر حتى عادت الأمور إلى مجاريها .

قالت چو ، وهى تسترد سيطرتها على مشاعرها :

ـ علينا بالأمل والعمل ، فبهذا نصحتنا أمى ، ولذلك سوف أذهب كعادتى إلى العمة مارش ، رغم ما ينتظرنى من نصحها ونقدها .

وقالت ميج ، وقد ساءها احمرار عينيها :

ـ وسأذهب لعملى عند آل كنج ، وإن كان بودى أن أبقى اليوم فى البيت أدبر شئونه .

فقالت آمى فى اعتداد :

ـ لا داعى لذلك ، ففى وسعى أنا وبث أن نؤدى أعمال البيت على ما يرام .

وكانت بث تعد الحوض للغسيل ، فقالت تتم حديث أختها :

ـ سوف ترشدنا حنا إلى ما يجب أن نعمله ، وسيكون البيت منظماً

– إلى اللقاء يا عزيزاتى

عند عودتكما .

وقالت آمى وهى تلتهم قطعة من السكر :

ـ إن القلق شعور مثير .

وضحك البنات عالياً لقولها ، فارتاحت صدورهن بالضحك ، وهزت ميج رأسها عجباً من تلك الفتاة التى تقاوم الحزن بالتهام قطع السكر !

وسرعان ما استعدت چو وميج لعملهما ، وخرجتا من البيت ، وعند منعطف الطريق التفتتا خلفهما كعادتهما ، تنظران إلى النافذة التى اعتادت الأم أن تودعهما منها كل صباح ، فطالعهما وجه بث المتورد ، يومئ إليهما فى ابتسامة مشرقة ، فقد عز على الصغيرة الطيبة أن تنصرف اختاها حزينتين ، ولذلك اختارت أن تقوم بدور الأم الغائبة . ولوحت چو بقبعتها تشكر لأختها لفتتها الحنون ، وقالت لميج قبل أن تفترق عنها عند المنعطف :

ـ هذا ما كنت أتوقعه من العزيزة بث ، إلى اللقاء يا ميجى ، وأتمنى أن لا يرهقك آل كنج ، ولا تقلقى من أجل أبى .

فردت ميج وهى تكبت بسمة بعثها منظر شعر چو القصير :

ـ وآمل أنا أيضاً أن لا تثيرك العمة مارش بنقدها المر ، ولا تستائى إن فعلت ، فإن شعرك جميل وشكله صبيانى لطيف .

فربتت چو على قبعتها وقالت :

ـ هذه عزاى الوحيد .

وسارت فى طريقها ، كما يسير حَمَل مجزوز الصوف فى يوم عبوس قمطرير .

وجاءت الأخبار عن أبيهن تبعث الراحة والأمل ، فرغم خطورة مرضه ، تحسنت حاله على أثر حضور زوجته الطيبة ، التى كانت له أحسن ممرضة وأرق مواسية .

وقام مستر بروك بإرسال نشرة يومية للبنات يطلعهن فيها على صحة أبيهن . وأصرت ميج ـ بحكم أنها أكبر الأسرة سنا ـ أن تقرأ عليهن هذه النشرات بصوت مرتفع . وجعلت أخبار النشرات تتحسن يوماً بعد يوم ، فيزداد بها سرور البنات واطمئنانهن ، وتتضاعف قابليتهن لكتابة الخطابات لأمهن ، فكانت المظاريف المفعمة بالصفحات الطويلة المليئة بالأخبار ، ترسل كل صباح إلى مقر الأم فى واشنجتون ، أحسن البلاد وعاصمتها . ولما كانت تلك الرسائل تحوى أخباراً ترسم صورة نموذجية ، لذلك نسترق بعضاً منها ، نقدمه فيما يأتى :

« يا أعز الأمهات

لا يمكنك أن تتصورى مبلغ السعادة التى بعثها فينا خطابك الأخير ، فلم نتمالك أنفسنا من أن نضحك ونبكى فى وقت واحد . إنه لحظ جميل أن تستدعى أعمال مستر لورنس بقاء مستر بروك فى واشنجتون طوال هذه المدة ، ففى وجوده قريباً منك ، عون كبير لك ولأبى . إن الفتيات على

أحسن حال ، فچو تساعدنى فى التطريز ، وتصر على أداء الأعمال الشاقة. وهى تعمل فوق طاقتها ، ولكنى غير قلقة عليها ، لمعرفتى بأن « نوبة التضحية » التى تتملكها الآن ، لن تدوم طويلا . كذلك بث تقوم بعملها كالساعة الدقيقة ، لا تنسى شيئاً مما أوصيتها به ، ولكن مرض أبى يحزنها دائماً ، ولا تكف عن حزنها إلا عندما تجلس إلى معزفها . . أما آمى فهادئة مطيعة ، وأنا أرعاها بكل عناية ، وقد تعلمت الآن أن تمشط شعرها بنفسها ، كما أنها بدأت تتعلم عمل عروات الأزرار ، وتبذل جهداً كبيراً فى ذلك ، وسوف يسرك مدى التقدم الذى بلغته عندما تعودين

« مستر لورنس يحدب علينا ويرعانا كالدجاجة العجوز ، على حد تعبيره ؛ ولورى الطيب يرعى حقوق الجيرة ، وعندما يخيم علينا الحزن ، ونشعر كأننا أيتام لبعدكما عنا ، يقوم هو وچو بتوفير أسباب السرور والمرح لنا . أما حنا فهى الطيبة بعينها ، لا تؤنبنا مطلقاً ، وتصر على أن تنادينى « بالآنسة مارجريت » وتعاملنى بكل احترام .

« إننا جميعاً بخير لا نكل عن العمل ، ولكننا نتوق لعودتكم ، ونفكر فيكم بالليل والنهار . بلغى أبى خالص محبتى ، ودمت لابنتك ميج . »

وكانت هذه الرسالة المكتوبة على ورق معطر ، تختلف كل الاختلاف عن رسالة أخرى ، كتبت على ورقة كبيرة ، من النوع الرخيص ، فى خط كبير الحروف ، تتخلله بقع الحبر ، وقد جاء فيها :

« أمى الغالية

«تحيات ثلاث لأبى العزيز ! كان تصرفاً هائلا من بروك أن يرسل برقية حال وصولكم ليطمئننا على صحة أبى . لقد قفزت فى حجرتى سروراً عند وصول البرقية ، وحاولت أن أشكر الله لرأفته بنا ، ولكن الدموع غلبت صلواتى فوجدتنى أبكى وأقول :

إنى فرحة ! إنى فرحة ! أفلا تقوم هذه الجملة مقام الصلاة ؟ إنى أشعر بأن قلبى مفعم بالشكر لله عز وجل .

«إننا نمضى بعض وقتنا فى الضحك والسرور ، ويمكننى الآن أن أتمتع بهذه السويعات المرحة ، فكلهم يرعانا ويحدب علينا ، كأننا نعيش فى برج سعيد للحمام .

«قد يضحكك كثيراً أن ترى ميج الآن ، وهى تترأس مائدة الطعام ، وتحاول أن تكسب نفسها مظاهر الأمومة . إنها تزداد حسناً كل يوم ، وإنى أحبها فى بعض الأحيان . إن الصغيرتين فى طهر الملائكة وطيبتها ، أما أنا — أنا چو — فسأبقى كما أنا . لقد كادت تنشب بينى وبين لورى معركة حامية ، فقد قلت رأيى بصراحة فى أمر تافه صغير ، وكنت على حق ، ولكنى أسأت التعبير ، فغضب منى وقفل راجعاً إلى بيته ، وهو يهدد بأنه لن يعود إلى زيارتنا حتى أعتذر له ، وأطلب الصفح منه . فجن جنونى لتحديه ، وأجبت بأننى لن أعتذر له أبداً ، ودام الخصام طوال اليوم ، وانتابنى حزن شديد ، وتمنيت لو كنت معى لتقودينى

إلى الصواب ، لأن شخصية لورى مثل شخصيتى تماماً ، فكلانا عنيد معتد برأيه . وظننت فى بداية الأمر ، أنه لن يلبث أن يقرنى على ما قلت ما دمت على حق ، ولكنه لم يأت ، ولم يرجع عن رأيه . وعندما ولى النهار ، وأظلمت الدنيا ، تذكرت يوم سقطت آمى فى النهر ، فنصحتنى بآن لا أدع شمس اليوم تغيب وقلبى مفعم بالغضب . وانكببت على كتاب العظات أقرأ فيه بشغف ، حتى ارتاح قلبى قليلا ، وعندئذ هبطت السلم جرياً ، وكلى رغبة فى أن أعتذر للورى . وقابلته عند باب الدار قادماً ليعتذر لى بدوره ، فضحكنا معاً ، واعتذر كلانا للآخر ، وبذلك زال التوتر ، وعادت المياه إلى مجاريها .

«لقد نظمت أمس قصيدة ، فى أثناء مساعدتى لحنا فى غسل الملابس ولما كنت أعرف أن أبى يحب سخافاتى ، فقد كتبتها فى هذا الخطاب لتسليته ، وأرجو أن تبلغيه شوقى وحبى ، وقبّلى لى نفسك اثنتى عشرة قبلة .

من ابنتك المهووسة

چو

أغنية من وحى طست الغسيل

يا ملكة الطست إنى أغنى فى حبور
ورغوة الصابون تعلو وترتفع

وأنا أشطف وأعصر فى سرور
ثم أشبك الملابس حتى تجف
فوق الحبال ، فى الهواء النقى
تحت السماء الصافية المشمسة

كان بودى أن أغسل القلوب والنفوس
وأزيل منها رواسب الأيام الماضية
وأدعو الهواء والماء بسحرهما
ينقيان النفوس بنقائهما
وعندئذ تصير الدنيا الواسعة
أجمل وأروع أيام الغسل

أيمكن ، ونحن نمضى فى حياة كادحة
أن تزهر الراحة فى بالنا
ولا يلزم العقل أن يفكر
فى الحزن والنصب والهموم
ويزيل السعد الأحزان عن قلوبنا
كما تزيل مكانسنا النشيطة أقذار اليوم ؟
إنى سعيدة بما أؤديه

من عمل ، يوما بعد يوم
ففى العمل صحة وقوة وأمل
تعلمت منها أن أقول فى سرور :
أيها العقل قد تفكر ، أيها القلب قد تشعر
أما أنت أيتها اليد فستعملين على الدوام» .

* * *

أما بث فكتبت تقول :

« أمى العزيزة

« إنى لا أملك سوى أن أرسل لك حبى ، وأن أرسل إلى أبى زهرة البانسيه المجففة ، التى ربيتها وعنيت بها ليراها . إنى أقرأ دروسى كل يوم وأحاول أن أكون بنتاً طيبة ، وفى المساء أغنى لنفسى بعض الأناشيد التى يحبها أبى ، حتى أنام . ولكنى لا أستطيع أن أنشد أغنية أبى المفضلة ، لأنها تثير شجونى وتدفعنى إلى البكاء . كونى مطمئنة علىّ ، فكلهم يرعانى ، وأنا أقوم بواجباتى ، أملأ الساعة بانتظام ، وأجدد هواء الغرف كل يوم ، ونحن أسعد ما يمكن أن نكون بغيركما . ولذلك أختم خطابى سريعاً .

«قبلاتى لأبى العزيز ، أطبعها على الخد الذى يدعوه خدى ، وعودى سريعاً إلى ابنتك المحبة .

بث الصغيرة »

« أمى الحبيبة

«إننا جميعاً بخير ، وأنا أؤدى دروسى كل يوم، ولا أزعج الأخريات أو أرهقهن، وميج تعطف على جدا ، وتعطينى كل يوم قالبا من الحلوى مع الشاى ، وچو تقول إن الحلوى تكسبنى حلاوة فى الأخلاق . يؤسفنى أن لورى لم يعد يحترمنى كما يجب فى هذه الأيام ، رغم أننى قد بلغت الثانية عشرة من عمرى ، ولم أعد طفلة صغيرة . إنه يجرح شعورى كلما حييته أو شكرته بالفرنسية ، فينطلق يكلمنى بهذه اللغة فى سرعة شديدة ، لا أفهم معها ما يقول .

«إن أكمام ثوبى الأزرق قد بليت تماماً ، فلما وضعت ميج أكماماً أخرى بدلا منها ، أفسدت الثوب كله ، لأن لونها أشد زرقة من بقية الثوب . ولقد حزنت لذلك ، ولكنى لم أغضب أو أتذمر . إنى أتحمل متاعبى فى جلد . ولكنى أتمنى لو أن حنا زادت مقدار النشا فى مرولتى ، كما أود لو أنها طهت بليلة كل يوم ، أفلا يمكن ذلك ؟ ألم أتقن رسم علامة الاستفهام ؟ تقول ميج إن كتابتى مليئة بالأخطاء الهجائية ، وهو أمر فظيع ، ولكن ما العمل ، وعندى من الواجبات شىء كثير ؟

« وداعا ، وبلغى أبى مزيد حبى وأشواقى.

ابنتك المحبة

آمى كورتوس مارش »

وكتبت حنا تقول :

« عزيزتى مسز مارش

« أريد فقط أن أقول إن كل شىء على ما يرام، والفتيات مجدات يعملن سريعاً ، ولا يتوانين عن واجب من الواجبات ، ومس ميج تبشر بأن تكون ربة بيت من الطراز الأول ، فهى تحب عملها ، وتفهم كل شىء بسرعة عجيبة . چو تبذل جهدها ، ولكنها لا تفكر قبل العمل فيما يجب أن تعمله ، ولذلك لا يمكن مطلقاً تقدير النتائج . لقد قامت يوم الاثنين الماضى بغسل ملابس الأسرة كلها ، ولكنها وضعت النشا قبل الموعد المناسب ، ووضعت كذلك ملاءة صفراء فى محلول الزهرة الزرقاء ، فكانت النتيجة مضحكة للغاية . إن بث أحسن مخلوق فى الدنيا ، وهى سند مهم لى بفضل سرعتها واعتمادها على نفسها ، فهى تريد أن تتعلم كل شىء ، وقد أتقنت الشراء من السوق إلى حد يفوق سنها ، وهى كذلك تقيد الحسابات بمعونتى ببراعة فائقة . إننا نقتصد فى النفقات اقتصاداً كبيراً ، وأنا أعطى الفتيات — حسب تعليماتك — القهوة مرة فى الأسبوع ، والحساء فى بقية الأيام . آمى لا تتذمر كثيراً ، ولكنها تلبس أحسن ثيابها ، وتكثر من أكل الحلوى . مستر لورى ملىء بالنشاط كعادته ، وكثيراً ما يقلب البيت رأساً على عقب ، ولكنه يبعث الشجاعة فى قلوب البنات ، ولذلك فإنى أتركه يعمل ما يشاء . أما الرجل العجوز فيغرقنا بالهدايا إلى حد محرج ، ولكنى لا أعترض لعلمى بصدق

رغبته فى تدليل البنات ، وسأختم خطابى الآن لأن العجين اختمر ، وأخشى أن يفسد إذا تأخرت عن خبزه . أقدم لمستر مارش عظيم احترامى ، وأدعو الله أن لا يصيبه بالتهاب رئوى بعد الآن .

مع أصدق احتراماتى

حنا موليت »

وكتب لورى يقول :

« حضرة رئيسة الممرضات بالعنبر الثانى

« كل شىء هادئ فى الميدان ، والفرق جميعها تعمل فى نظام ، وقلم المخابرات يقوم بواجبه كاملا ، والحرس الوطنى تحت قيادة البكباشى تيدى على استعداد دائم ، والقائد العام اللواء لورنس يستعرض الجيش كل يوم ، والشاويش حنا يحفظ النظام فى المعسكر ، واليوزباشى ليون يقوم بالحراسة ليلا ونهاراً .

« ولقد أطلقنا أربعة وعشرين مدفعاً عندما وصلتنا الأخبار السارة من واشنجتون ، كما قمنا بعمل عرض عسكرى بالملابس الرسمية فى دار القيادة . القائد العام يبعث إليكم بتمنياته القلبية ، كما يشاركه فى تلك التمنيات

البكباشى تيدى »

وكتب مستر لورنس يقول :

« سيدتى العزيزة

إن الفتيات جميعاً فى خير حال ، وتقوم بث وولدى بتلقى الأخبار كل يوم ، أما حنا فخادم مثالية ، وهى كالتنين فى رعاية ميج الحسناء . إنى سعيد باستمرار تحسن الجو ، وأرجو أن تستفيدى من وجود بروك معك ، كما أرجو أن لا ترددى فى طلب المال إذا وجدت أن النفقات تتخطى ميزانيتك المقررة . لا تبخلى على زوجك بشىء ، وشكراً لله أن تحسنت صحته

من صديقك المخلص

چيمس لورنس »

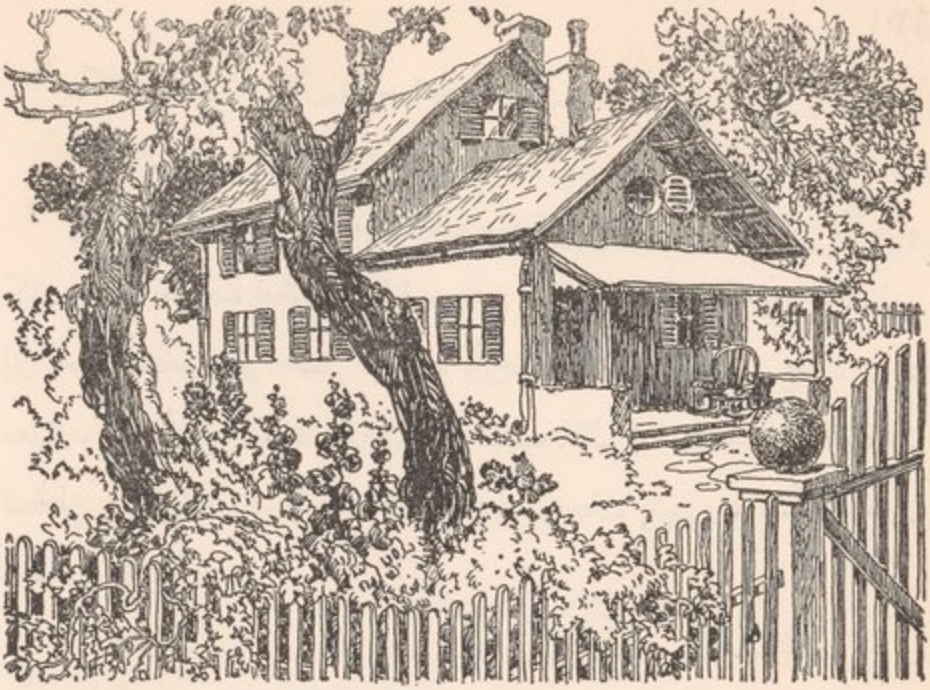

الفصل السابع عشر

المؤمنة الصغيرة

كانت الفضائل التى انبعثت من البيت القديم خلال الأسبوع الأول ، تكفى الحى كله ، فقد سادت فيه ألوان لا حصر لها من إنكار الذات وصدق الرغبة فى التضحية . فلما زال التوتر والقلق ، وهدأت النفوس واطمأنت على صحة الأب ، تراخت جهود البنات فى العمل والتضحية ، وعدن شيئاً فشيئاً إلى طباعهن لأولى . حقيقة إنهن لم يتقاعدن عن العمل ، ولكن حماستهن فترت قليلا ، خصوصاً عقب الجهد الجبار

الذى بذلنه فى الأيام الأولى ، واستحققن – فى رأيهن – عطلة قصيرة ، ولكنها كانت عطلات وعطلات متوالية .

وكان أول ما حدث أن أصيبت چو ببرد شديد ، من جراء إهمالها فى تدفئة رأسها ذى الشعر القصير ، فأمرتها عمتها بأن تعتكف فى البيت ، لأنها لا تحب أن يكون صوت من تقرأ لها متحشرجاً مبحوحاً .. وفرحت چو بذلك كل الفرح ، وبقيت فى البيت توزع جهودها بين غرفة السطح والقبو ، حتى نالت كفايتها منهما ، فانزوت على أريكتها تعالج بردها بالدواء والقراءة .

واكتشفت آمى أن الواجبات المنزلية تعطل رسالة الفن الرفيع ، فعادت إلى صلصالها تعمل منه « فطائر الطين » . وكانت ميج تذهب إلى عملها كل يوم ، وفى المساء تعكف فى البيت على ما تسميه تطريزاً ، ولكنها كانت فى الحقيقة تقضى معظم الوقت فى كتابة الرسائل لأمها أو فى تلاوة رسائل أمها مرة بعد مرة . واستمرت بث فى عملها كالمعتاد تقوم بواجباتها كاملة ، وكذلك تقوم بما يتركه أخواتها من عمل ، فإذا انتظمت شئون البيت ، وآن أوان راحتها ، تضاعف شوقها إلى أمها ، وازداد حزنها لمرض أبيها ، فتنزوى فى ركن من البيت ، وتدفن وجهها فى ثنايا ثوبها ، وتطلق لدموعها العنان ، ثم تصلى من أجل والديها العزيزين فى حرارة وإيمان . ولم يكن أحد يعرف كيف يخفف عنها أحزانها ، ولكن جميعهم كانوا يعرفون أن بث حلوة الطبع لا تبخل بالمعونة ، فيهرعون

إليها فيما يعن لهم من أمور .

وفى بداية الأمر كان الفتيات يعلمن أن المحنة التى تمر بهن ، امتحان صادق لأخلاقهن ، فلما هدأت أحزانهن ، واطمأنت قلوبهن ، وشعرن بأن الأدوار التى لعبنها ، كانت عظيمة رائعة تستحق الثناء ، تراخين عن الجهاد ، وتكاسلن فى أداء الواجبات ، وبذلك أخطأن خطأ عظيما ، لم يكتشفنه إلا بعد درس قاس ، أورثهن الحزن والندم .

قالت بث لأختها ميج ذات مساء ، بعد أن مضت عشرة أيام على سفر مسز مارش :

ــ ليتك تذهبين لزيارة آل هامل يا ميج ، فقد أوصتنا والدتى بهم خيراً كما تعرفين .

فقالت ميج وهى تطرز وتهز مقعدها المريح :

ــ ولكنى جد متعبة هذا المساء .

فقالت بث تسأل چو :

ــ ألا تذهبين أنت يا چو ؟

فقالت :

ــ إن الجو عاصف ، وأخشى أن تتضاعف إصابتى بالبرد .

قالت بث :

ــ كنت أظن الجو صحواً .

قالت چو :

ـ إن الجو صحو للنزهة ، لا لزيارة آل هامل .

وضحكت خجلة من تضارب أقوالها .

فسألت ميج :

ـ ولم لا تذهبين أنت يا بث ؟

قالت :

ـ إننى أذهب كل يوم ، ولكن الطفل الصغير مريض ، ولست أعرف ماذا أفعل من أجله ، فمسز هامل تذهب لعملها وتتركه فى رعاية ابنها لوتشون . وأعتقد أن ذهابك أو ذهاب حنا ضرورى ، فحال الطفل يزداد سوءاً يوماً بعد يوم .

وكانت بث تتكلم فى حرارة وإيمان ، فوعدتها ميج بأن تذهب فى اليوم التالى .

وقالت چو :

ـ اطلبى من حنا أن تعطيك بعض الطعام ، وخذيه إليهم يا بث .

ثم أضافت تعتذر قائلة :

ـ كنت أود أن أذهب ، ولكنى أريد أن أنتهى من قصتى أولا .

فقالت بث :

ـ إنى متعبة جداً أحس بصداع شديد فى رأسى ، ولولا ذلك ما طلبت إلى إحداكن أن تذهب بدلا عنى .

فقالت ميج :

– سوف تحضر آمى حالا ، فنرسلها نيابة عنا .

فقالت بث :

– إذن أستريح قليلا حتى تعود آمى .

وهكذا استلقت بث على الأريكة ، وعادت كل فتاة إلى عملها ، وراح آل هامل فى عالم النسيان ، ومضت ساعة لم تحضر فيها آمى ، وقامت ميج تجرب ثوباً جديداً فى حجرتها ، وانهمكت چو فى قصتها ، واستسلمت حنا للنوم أمام نيران المدفأة . فلم تجد بث بداً من قطع راحتها ، فقامت عن الأريكة وارتدت قبعتها ومعطفها ، وملأت سلة بالهدايا للأطفال الفقراء ، ثم انسلت خارجة فى الهواء البارد ، وقد ثقل رأسها بالألم ، وارتسم الحزن فى عينيها الصبورتين .

وعادت الصغيرة متأخرة من زيارتها ، فلم ينتبه أحد لعودتها ، ولم يرها أخواتها وهى تتسلل إلى حجرة أمها ثم تغلق الباب خلفها . وبعد نصف ساعة قامت چو تحضر شيئاً من صوان أمها ، فوجدت بث تجلس إلى خزانة الأدوية ، وقد علا وجهها الوجوم ، واحمرت عيناها ، وأمسكت فى يدها بقنينة محلول الكافور .

وصاحت بث متعجبة ، وسألتها عما بها ، فمدت بث يدها محذرة إياها أن تقترب منها ، ثم سألتها بسرعة :

– هل سبق أن مرضت بالحمى القرمزية ؟

قالت :

ـ نعم منذ سنوات عندما مرضت بها ميج ، ولكن لماذا تسألين ؟

قالت :

ـ لأن الطفل قد مات !

ـ أى طفل ؟

قالت بث وهى تبكى وتنوح :

ـ طفل مسز هامل ، لقد مات وهو فى حجرى قبل أن تصل أمه إلى البيت .

قالت چو فى صوت حزين :

ـ مسكينة يا عزيزتى ، لا بد أنه كان أمراً فظيعاً ! كان يجب أن أذهب بدلا عنك .

ثم أخذت أختها وأجلستها على حجرها ، وجلست على مقعد أمها الكبير تواسيها .

قالت بث :

ـ لم يكن الأمر فظيعاً مثلما كان محزناً ، فقد لاحظت عند ذهابى أن حالته ساءت فجأة ، وقال لوتشون بأن أمه ذهبت تستدعى الطبيب ، فأخذت الطفل فى حجرى لأريح لوتشون قليلا . وبدا على الصغير أنه نائم ، وفجأة صرخ صرخة خافتة وانتفض ثم سكنت حركته بعد ذلك . وقد حاولت أن أدفئ قدميه ، وحاول لوتى أن يعطيه قليلا من اللبن ، ولكن الرضيع لم يتحرك ، فأدركت أنه مات .

فقالت چو تهدئ أختها :

ـ لا تبكى يا عزيزتى ! ماذا فعلت بعد ذلك ؟

قالت :

ـ ظللت ممسكة بالطفل فى رقة حتى عادت مسز هامل بصحبة الطبيب . وقال الطبيب بأنه مات ، ثم فحص الأطفال الآخرين ، فوجدهم جميعاً مرضى بالحمى القرمزية ، ولذلك أنبها لتوانيها فى استدعائه قبل ذلك . وحدثته مسز هامل بفقرها ، وكيف حاولت علاج الصغير بنفسها ، ثم طلبت إليه أن يعنى بالأولاد الآخرين ما دام أمر الرضيع قد انتهى ، وليجزه الله خيراً على إحسانه . فابتسم الطبيب ورق قلبه ، فكان موقفاً محزناً جعلنى أبكى مع الآخرين . وفجأة التفت الطبيب إلىّ وأمرنى بأن أعود حالا إلى البيت ، وبأن أتناول دواء البلادونا ، وإلا أصابنى المرض .

فارتسم الهلع فى عينى چو ، وضمت الفتاة إلى صدرها وهى تقول :

ـ لا . لن يحدث هذا ، ولن أصفح عن نفسى أبداً إذا مرضت يا بث ! يا إلهى ! ماذا نفعل الآن ؟

قالت بث :

ـ لا تجزعى ، فلن يكون مرضى شديداً . لقد قرأت فى كتاب لأمى ، وعرفت أن المرض يبدأ بصداع فى الرأس والتهاب فى الحلق ، وشعور بالضعف ، وهذا ما أعانيه الآن ، ولذلك تناولت قدراً من

البلادونا تحسنت بعده قليلا .

ثم وضعت الصغيرة يدها الباردة على جبينها الملتهب ، وهى تحاول أن تبدو فى حالة طيبة .

فقالت چو ، وهى تشعر بأن بينها وبين واشنجتون بعد السماء عن الأرض :

ـ ليت أمى كانت هنا الآن !

ثم أمسكت بالكتاب ، وقرأت صفحة منه ، ثم تحسست حرارة جبين أختها ، ونظرت فى حلقها ، وقالت فى وجوم :

ـ لقد خالطت الطفل المريض أكثر من أسبوع ، كما خالطت إخوته الآخرين ، وقد بدأت العوارض تظهر عليهم ، وأخشى أن العدوى أصابتك بالفعل . إن حنا تعرف كل شىء عن الأمراض ، فدعينى أستشيرها .

فصاحت بث فى لهفة :

ـ بالله لا تسمحى لآمى بالدخول ، فهى لم تمرض بالحمى القرمزية من قبل ، وأكره أن تنتقل العدوى منى لها . ثم ألا يجوز أن تمرضى بها أنت وميج مرة ثانية ؟

فتمتمت چو ، وهى تذهب إلى حنا تستشيرها :

ـ لا أعتقد ذلك ولا يهمنى أن أمرض ثانية ، فأنا حيوان أنانى أستحق كل شىء ، فقد قنعت بكتابة السخافات ، وتركتك تذهبين

إلى بيت المرضى .

واستيقظت حنا الطيبة بسرعة ، وأمسكت بقياد الموقف ، مؤكدة أن لا داعى للخوف والقلق ، فالقرمزية مرض شائع فى الصغار ، ولا خطر منه مع العلاج الصحيح ، ولا يموت منها أحد معه . وأحست چو ببعض الراحة ، لثقتها فى كل ما تقوله حنا ، ثم ذهبت الاثنتان تستدعيان ميج .

وفحصت حنا بث وسألتها بعض أسئلة ثم قالت :

– والآن سأخبركن بما يجب أن نعمل ؛ فأولا نستدعى الدكتور بانجز ليفحصها ، ويوجهنا فى علاجها التوجيه الصحيح ، وثانياً نبعد آمى عن العدوى بإرسالها إلى بيت العمة مارش بعيداً عن المريضة ، ولتبق واحدة منكما مع بث يوماً أو يومين .

وشعرت ميج بمسئوليتها فيما حدث ، فقالت فى لهفة :

– سأبقى أنا بالطبع ، لأنى أكبرهن سناً .

فقالت چو فى تصميم :

– بل أبقى أنا ، فالخطأ خطأى ، وعلى تقع المسئولية فيما حدث . لقد وعدت أمى بأن أزور آل هامل ، ولكنى لم أف بوعدى .

فقالت حنا تسأل :

– لا داعى لوجود الاثنتين ، فمن منهما تفضلين يا بث ؟

فأسندت بث رأسها إلى كتف چو ، وفى عينيها نظرة الرضا ، وقالت :

– لتبق چو إن سمحت .

وكان فى قولها فصل الخطاب ، فقالت ميج وقد ساءها اختيار أختها ، رغم بغضها للتمريض :

– سوف أذهب وأخبر آمى بالأمر .

ورفضت آمى كلية أن تذهب إلى العمة مارش ، وقالت إنها تفضل أن تمرض بالحمى ألف مرة على أن تذهب إليها . وحاولت ميج أن تقنعها ثم استعطفتها ، ثم أمرتها بالذهاب بلا جدوى . وأصرت آمى على البقاء ، ويئست ميج ، وذهبت تسأل حنا كيف تعالج الموقف . وجاء لورى قبل أن تعود ميج ، فوجد آمى تنشج بالبكاء ، وقد دفنت رأسها فى حشيات الأريكة . وقصت عليه آمى قصتها ، وقد ظنت أنه سينتصر لها ، ولكن الفتى وضع يديه فى جيوبه ، وجعل يسير جيئة وذهاباً ، وهو يصفر فى صوت خافت ، وقد عقد حاجبيه فى تفكير عميق ، ولم يلبث أن جلس إلى جوارها وقال فى صوت رقيق النغمات :

– كونى امرأة عاقلة ، وأطيعى أوامرهن . لا ، لا تبكى واستمعى إلى البرنامج اللطيف الذى أقترحه : ستذهبين إلى العمة مارش ، وسوف آتى لأخذك كل يوم للنزهة فى العربة ، أو سيراً على الأقدام ، فنستمتع بوقتنا كل الاستمتاع . أفلا ترين أن الذهاب خير من البكاء هنا ؟

فقالت آمى فى صوت جريح :

ـ لا أريد أن أبعد عن البيت ، كما أنهن يعاملننى كما لو كنت عقبة أقف فى طريقهن .

قال :

ـ يا لطيبة قلبك يا طفلتى ، إن أخواتك يحرصن على صالحك ، ويخفن أن تصيبك العدوى ، فهل تريدين أن تمرضى ؟

قالت :

ـ لا طبعاً ، ولكنى كنت مع بث طوال هذا الأسبوع ، وأغلب الظن أننى التقطت المرض منها .

قال :

ـ وهذا أدعى لذهابك ، فتغيير الهواء يساعدك على الشفاء سريعاً ، أو يخفف وطأته على أقل تقدير . نصيحتى لك أن تغادرى هذا البيت بأسرع ما يمكن ، فالحمى القرمزية ليست مرضاً يستهان به يا آنسة .

فقالت آمى وقد بدا عليها الخوف :

ـ إن عمتى سليطة اللسان ، وبيتها قابض بغيض .

قال :

ـ لن يكون البيت قابضاً ، إذا حضرت كل يوم لأصحبك إلى نزهة طيبة ، وأطمئنك على أحوال بث . زيدى على ذلك أن السيدة العجوز تحبنى ، وسوف أبذل منتهى جهودى فى استمالتها ، حتى لا تغضب منا أو تنهرنا مهما أتينا من أفعال .

قالت :

ـ أتأخذنى فى العربة الصغيرة التى يجرها المهر ؟

قال :

ـ أعدك بذلك وعد رجل شريف .

قالت :

ـ وستحضر كل يوم بلا استثناء ؟

قال :

ـ سوف ترين بنفسك .

قالت :

ـ وتعيدنى إلى البيت حالما تشئ بث ؟

قال :

ـ بعد ثانية واحدة من شفائها .

قالت :

ـ وهل تصحبنى إلى المسرح أحياناً ؟

قال :

ـ بل أصحبك إلى عشرين مسرحاً إذا أردت .

قالت متمهلة :

ـ حسناً . . بهذه الشروط لا أمانع فى الذهاب .

قال ، وهو يربت على ظهرها راضياً ، مما أغضبها كثيراً ، وجعلها

تشعر كأنها طفلة صغيرة :

ـ أنت بنت طيبة ، اذهبى إلى ميج وأخبريها بعزمك على الذهاب .

وهبطت ميج وچو جرياً لتريا المعجزة التى تحققت ، فقد وعدت آمى أن تذهب ، إذا ما قرر الطبيب أن بث مريضة بالحمى حقا .

وقال لورى :

ـ كيف حال الصغيرة العزيزة ؟

وكان لورى يعزّ بث ويدللها ، ولذلك كان يخالج صوته قلق شديد ، أوضح مما كان يجب أن يكشف عنه .

أجابت ميج :

ـ إنها ترقد فى سرير والدتى ، وهى تحس ببعض الراحة الآن . لقد أزعجها موت الطفل ، وأعتقد أنها لا تعانى غير آلام البرد ، وهكذا تقول حنا أيضاً ، وإن كان قلقها الشديد يخيفنى .

وقالت چو ، وهى تعبث فى شعرها القصير بقلق واضح :

ـ ما أقسى هذه الدنيا ، فما إن نخرج من همّ حتى يحل بنا همّ آخر . إنى حائرة ، ويبدو أن غياب والدتى أفقدنا كل سند نركن إليه .

فقال لورى ، الذى لم يتعود بعدُ منظرَ صديقته بعد أن جزت شعرها :

ـ لا تثيرى شعرك هكذا كالقنفذ ، سويه وأسدليه ، حتى لا تفسدى شكلك ، ثم أخبرينى هل أرسل برقية إلى والدتك ، أم ماذا أصنع ؟

فقالت ميج :

ـ هذا ما يقلقنى ويحيرنى ، وأظن أنه من الصواب أن نخطرها بمرض بث ، ولكن حنا لا توافق ، وتعتقد أن والدى ما زال فى حاجة إلى أمى معه ، وربما أزعجه الخبر وأقلقه . لن يطول المرض ببث ، وحنا تعرف كل ما يجب أن يعمل ، وقد نصحتنا أمى بأن نطيعها ، وعلينا أن نعمل بالنصيحة ، وإن كنت لا أراها صائبة .

قال لورى :

ـ حسناً ، ورأيى أن ننتظر كلمة الطبيب ، ثم نستشير جدى فى الأمر .

فقالت ميج فى لهجة آمرة :

ـ اذهبى يا چو ، وأحضرى الدكتور بانجز ، فلن يتقرر شىء قبل زيارته ، وسنستشير مستر لورنس بعد ذلك .

فقال لورى وهو يهم بالانصراف :

ـ ابقى حيث أنت يا چو ، فمهمتى فى هذا المكان أن أقوم بمثل هذه المهمات .

قالت ميج :

ـ أخشى أن تكون مشغولا .

قال :

ـ لا ، فقد انتهيت من دروس اليوم .

قالت :

ـ أو تدرس أيضاً فى أثناء العطلة ؟

قال وهو يستدير خارجاً من الحجرة :

ـ إنى أتخذ من جيرانى مثلا أحتذيه .

فابتسمت چو وهى تراه يقفز فوق السياج ، فى طريقه إلى استدعاء الطبيب ، ثم قالت :

ـ إنى أعقد على هذا الصبى آمالا كباراً .

فقالت ميج فى لهجة خشنة ، كأن الأمر لا يهمها فى كثير أو قليل :

ـ إنه يتقدم فى حدود سنه .

وجاء الدكتور بانجز ، وقرر بأن الأعراض التى تشكو منها بث هى أعراض الحمى القرمزية ، ولكنه يعتقد بأن وطأة المرض لن تكون شديدة عليها ، كما أسف على ما أصاب آل هامل . وفى الحال صدرت الأوامر إلى آمى بمغادرة البيت ، بعد إعطائها بعض الدواء لحمايتها من خطر الداء ، فخرجت مع لورى وچو ، وهى فى حالة سيئة .

ولقيتهم العمة مارش بكرمها المعهود ، ونظرت إليهم من فوق نظارتها فى حدة ، وصاح الببغاء من وراء مقاعدهم يقول : اخرج من هنا ، غير مسموح للصبيان بالدخول .

وسألت العمة قائلة :

ـ والآن ماذا تريدون ؟

فجعلت چو تسرد قصتها فى حين ابتعد لورى إلى جوار النافذة ، فقالت العمة :

ـ هذا ما كنت أتوقعه دائماً من حشر أنوفكن فى الأوساط الفقيرة . تستطيع آمى أن تبقى ما دامت صحيحة معافاة ، وإن كنت أشك فى ذلك ، لأنها تبدو بالفعل مريضة عليلة . لا تبكى يا طفلتى ، فإنى لا أطيق أن يتمخط الناس فى حضرتى .

وكانت آمى على وشك البكاء ، ولكن لورى أنقذها فى الوقت المناسب إذ جذب ذيل الببغاء ، فصاح الطير يقول ، وقد أدهشته المفاجأة :

ـ آه يا ذيلى !

وبدل أن تبكى آمى ، انفجرت ضاحكة ، وقالت السيدة فى صوت خشن :

ـ ما هى آخر الأخبار عن أمك ؟

أجابت چو فى صوت تحاول أن تكسبه رنة حزن :

ـ إن والدى قد تحسن كثيراً .

أجابت العمة بتشاؤمها المعهود :

ـ أحقًّا ؟ لا أظن التحسن يستمر طويلا ، فأبوك رجل ضعيف ، لا قدرة له على المقاومة .

وصاح الببغاء ، عندما جعل لورى يدغدغه فى أذنه ، وراح يتراقص

على حامله ، ويمد مخالبه نحو قبعة السيدة العجوز :

ـ ها . . ها . . لا تيأس وخذ تنشيقة من هذا السعوط . . إلى اللقاء . . إلى اللقاء .

فصاحت العجور تنهره قائلة :

ـ أمسك لسانك أيها الطائر الوقح ! وأنت يا چو ، خير لك أن تعودى إلى البيت فوراً ، فليس من اللائق أن تتسكعى بالليل مع صبى أنيق مثل . . .

وصاح الببغاء يقاطعها :

ـ أمسك لسانك أيها الطائر الوقح !

وهبط الطير عن حامله إلى المقعد ، وراح يجرى وراء الصبى الأنيق ، الذى سره حديث الطير الأخير ، فجعل بدنه يهتز لفرط الضحك .

وما إن انفردت آمى بالعمة مارش حتى قالت فى نفسها :

ـ لا أظننى قادرة على احتمالها ، ولكنى سأحاول .

وصرخ الببغاء قائلا بصوت وقح :

ـ هيا اذهبى ، إنك مزعجة ثقيلة !

وعندئذ انهمرت الدموع من عينى الفتاة ، ولم تقو على كبت بكائها .

الفصل الثامن عشر

أيام سود

اشتدت وطأة الحمى على بث بشكل لم يكن يتوقعه أحد سوى حنا والطبيب ، فقدكان البنات يجهلن كل شيء عن المرض. وبذل الدكتور بانجز كل جهده فى علاجها ، وقامت حنا تنفذ أوامره بمنتهى الدقة ، وبذلك أثبتت أنها ممرضة من الطراز الأول . وبقيت ميج فى البيت ولم تذهب إلى عملها عند آل كنج خشية أن تحمل العدوى إليهم ، وكان القلق يتملكها كما كان يتملكها شعور بأنها تذنب فى حق أمها ، عندما تكتب إليها

الرسائل ولا تذكر فيها شيئاً عن مرض بث ، وكان هذا التصرف فى رأيها خطأ جسيماً ، ولكن حنا أمرت بالصمت ، ولم ترض أبداً أن تزعج مسز مارش ويضاف جديد إلى همومها الكثيرة من أجل مرض تافه كهذا . وكرست چو نفسها لخدمة بث ليل نهار ، ولم يكن فى ذلك عناء يذكر ، إذ كانت بث صبورة بطبعها ، تتحمل آلامها صامتة بقدر إمكانها .

ولكن المرض اشتد ، وصارت الفتاة ، إذا ما انتابتها الحمى القوية ، تهذى فى صوت أجش متقطع ، وتحاول الغناء من حلق متورم ملتهب ، وتحرك أصابعها على الأغطية كما لو كانت معزفاً ، ثم جاء الوقت الذى لم تعد تميز أو تعرف فيه وجوه أخواتها ، فتخلط بين أسمائهن ، وتنادى راجية أن تعود أمها . واستبد القلق بچو لذلك ، وجعلت تتوسل إلى أختها ميج أن تصرح لها بالكتابة لأمها ، حتى بدأت حنا تقتنع بوجهة نظرها ، واعدة بالتفكير فى الأمر ، رغم أن حالة بث لم تكن فى رأيها قد وصلت إلى مرحلة الخطورة بعد . وساءت الأمور وزاد الموقف تعقيداً ، عندما وصلت رسالة من مسز مارش تقول فيها إن المرض اشتد بزوجها بعد تحسن ولذلك لا ينتظر أن تعود إلى بناتها قبل وقت طويل .

وما أشدما بدت الأيام سوداً حالكة ، وبدا البيت موحشاً حزيناً ، وثقلت قلوب الأخوات بالهموم وهن يعملن ويترقبن ، وشبح الموت يرفرف على البيت الذى ملأته السعادة دائماً . وفى هذا الوقت العصيب ،

جلست مارجريت تبكى وحيدة ، فتتساقط دموعها على قطعة النسيج التى تطرزها ، فلقد بدأت ، لأول مرة ، تقدر قيمة السعادة التى كانت تظل الأسرة فيما مضى ، وعرفت أنها كانت تستمتع بالحب والأمن والسلام والصحة ، وكلها تمثل النعم الحقيقية فى الحياة . وكان هذا الوعى لحو بدورها ، عندما كانت تقبع فى الحجرة المعتمة أمام أختها الصغيرة المعذبة ، وتصغى إلى صوتها الضعيف الحزين ، فقد أدركت مدى جمال أخلاق بث وحلاوة شخصيتها ، وأحست بمكانتها التى تملأ القلوب كلها ، وتمثل لها عظم تضحيات هذه الأخت التى كانت تعيش لغيرها ، وتملأ البيت سعادة بفضائلها وجميل خصالها . وتمنت آمى ، وهى فى منفاها لو كان فى استطاعتها أن تعود إلى بيتها ليتسنى لها خدمة بث ، وقد تلاشت من أمامها متاعب العمل ، وذكرت ، والأسى يملأ قلبها ، كم قامت بث عنها بواجبات أهملت تأديتها . وراح لورى يطوف بأرجاء بيته كشبح حائر ، أقفل جده المعزف الكبير ، كارهاً كل ما يذكره بجارته الصغيرة ، التى طالما أسعدت أمسياته بعزفها الجميل . وأحس جميعهم بغياب بث وافتقدوها ، حتى بائع اللبن والخباز والجزار . لقد كانوا يستفسرون عن حالتها كل صباح ومساء ، وجاءت مسز هامل ترجو الصفح عما سببته بجهلها ، وتطلب قطعة من القماش لبنتها . وانصبت الهدايا والتمنيات الطيبة من الجيران كلهم ، حتى دهش أهل الفتاة لكثرة أصدقاء هذه الطفلة الخجول ومعارفها .

وكانت بث طيلة أيام مرضها ترقد وقد احتضنت دميتها القديمة ، ولم تكفّ حتى فى أثناء هذيانها عن ذكر عرائسها العزيزات . وكانت تتحرق شوقاً إلى قطيطاتها ، ولكنها لم تسمح بإدخالها عندها خشية أن يصيبها المرض . وإذا ما غادرتها الحمى قليلا ، راحت تسأل عن چو وترسل تحياتها وأشواقها إلى آمى ، وتطلب من أخواتها أن يخبرن أمها بأنها بخير وسوف تكتب إليها فى القريب العاجل . وكثيراً ما كانت تطلب

قلما وورقاً تحاول أن تخط كلمة لوالدتها حتى لا يظن أبوها أنها قد أهملت شأنه . ولكن ساعات الصحو كانت تنتهى سريعاً ، وتعود بعدها الحمى شديدة قوية ، فتتقلب المسكينة فى فراشها يميناً وشمالا ، وتهذى بكلمات مبهمة ، أو تروح فى سبات عميق لمدة ساعات ، دون أن تفيد من النوم شيئاً من الراحة .

وكان دكتور بانجز يعودها مرتين فى اليوم ، وتناوبت حنا وچو الجلوس إلى جانبها ، فكانت الخادم تلازمها طوال الليل ، وچو تخدمها طوال النهار ، كما أعدت ميج برقية لأمها لترسلها لها أية لحظة . وجاء أول يوم من شهر ديسمبر ، وكان يوماً عبوساً قمطريراً ؛ ريح تصفر وثلوج تهطل ، وبدا كأن العام يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وجاء الطبيب كعادته صباحاً ، ونظر طويلا إلى بث ، وأمسك بيدها الساخنة بين يديه لحظة ، ثم تركها فى رفق ، وقال فى صوت خافت مخاطباً حنا :

— إذا كان من المستطاع أن تترك مسز مارش زوجها ، فمن الخير إخطارها بمرض الفتاة الآن .

فأومأت حنا برأسها ولم تنبس بكلمة ، وقد التوت شفتها فى اضطراب ، وتهالكت ميج فى المقعد وقد تخاذلت ساقاها عند سماع تلك الكلمات . أما چو فقد ابيض وجهها ، وتسمرت لحظة فى مكانها ، ثم خرجت إلى البهو تجرى ، واختطفت البرقية المعدة ، وارتدت معطفها ، ثم هرعت إلى الشارع غير عابئة بعواصف الجو الصاخبة . وسرعان ما عادت ،

وراحت تخلع معطفها فى هدوء ، وعندئذ دخل لورى يحمل رسالة ، ويقول بأن مستر مارش بسبيله إلى الشفاء . وقرأت چو الرسالة شاكرة ، ولكن الحمل الذى أثقل قلبها لم تخف وطأته بهذا الخبر ، ولم تبارح وجهها مسحة التعاسة التى تعلوه ، فقال لورى بسرعة :

ـ ماذا جرى ؟ هل ساءت حال بث ؟

قالت فى لهجة آسية ، وهى تخلع حذاءها المطاط :

ـ لقد أرسلت برقية إلى أمى .

قال وهو يجلسها على مقعد فى البهو ويساعدها فى خلع حذائها لارتجاف يديها :

ـ حسناً فعلت يا چو ! ولكن هل أرسلتها من تلقاء نفسك ؟

قالت :

ـ لا ، بل بناء على رأى الطبيب .

قال وقد كسا الخوف وجهه :

ـ أتظنين أن حالتها خطيرة إلى هذا الحد يا چو ؟

قالت :

ـ حالتها بالفعل خطيرة . إنها لا تعرفنا الآن ، وحتى هذيانها انتهى : ولم أعد أرى فيها بث التى أعرفها . إن أبى وأمى بعيدان ، وليس معنا من يعيننا على محنتنا ، وحتى الله يبدو بعيداً بحيث لا أستطيع أن أصل إليه بدعواتى .

وانهمرت الدموع من عينيها تجرى على خديها ، ومدت يدها فى حركة يائسة حائرة ، كأنها تبحث عن شىء فى الظلام . وأمسك لورى بتلك اليد وهمس فى لهجة هادئة ، وقد أحس بغصة فى حلقه :

— إننى هنا ، فاعتمدى على يا عزيزتى چو !

ولم تقل چو شيئاً ، ولكنها اعتمدت على يده العامرة بحرارة الصدق والإخلاص ، فأحست براحة تتسلل إلى قلبها ، كما شعرت بأن يد الله أيضاً تقترب من يدها فتعينها فى شدتها . وأراد الفتى أن يقول مزيداً يبعث الراحة والرجاء ، ولكن الكلمات استعصت عليه فوقف ساكناً يربت بحنان على الرأس المطرق ، كما كانت أمها تربت عليه تماماً . وكان هذا العطف الصامت أشد فعلا فى نفسها من الكلمات البليغة ، فأحست چو بالرثاء الصامت لحالها ، وعرفت مدى ما يبعثه حنان الأصدقاء من راحة غامرة للنفس . وسرعان ما جففت الدموع التى فرجت عن آلام نفسها ، ورفعت إلى الفتى وجهاً مفعماً بالشكر ، وقالت :

— شكراً لك يا تيدى ، إننى أحسن حالا الآن ، وقد زايلنى اليأس والأسى ، وسأحاول أن أحتمل إرادة الله وحكمه .

قال :

— تعلق بالأمل دائماً وتفاءلى ، فهذا خير معين لك يا چو . ستحضر أمك عن قريب ، وتعود المياه إلى مجاريها .

قالت وهى تنشر منديلها على ركبتها ليجف :

– إنى مسرورة أن تحسنت صحة أبى ، حتى تعود إلينا أمى مطمئنة عليه . آه يا صديقى! إن الهموم إذا حلت تأتى أفواجاً ، وإنى لأحمل العبء الأكبر منها على كتفى .

قال محتجاً :

– ألا تحمل ميج معك الأعباء نفسها ؟

قالت :

– طبعاً ، إنها تحاول ذلك ، ولكنها لا تحب بث بقدر ما أحبها ، ولن تفتقدها مثلى . إن بث كروحى ولا يمكننى أن أعيش بدونها ، لا يمكننى أبداً ! !

ودفنت چو وجهها مرة ثانية فى منديلها ، وراحت تبكى فى يأس وقنوط ، فقد احتفظت بسيطرتها على نفسها حتى هذه اللحظة ، ولم تذرف دمعة واحدة قبل ذلك . ورفع لورى يده يغطى عينيه ولم ينطق بكلمة حتى سيطر على الدموع التى ملأت عينيه ، وابتلع الغصة التى وقفت فى حلقه ، وأعاد الهدوء إلى شفتيه المرتجفتين . نعم ، قد لا يكون البكاء من شيم الرجال ، ولكنه لم يتمالك نفسه على أى حال . ورويداً رويداً هدأت چو وخف نحيبها ، فقال فى لهجة مفعمة بالأمل :

– لا أعتقد أن الله سيأخذها منا ، إنها فتاة طيبة ، ونحن جميعاً نحبها كل الحب .

قالت وهى تئن حزناً :

ـ إن الله يختار إلى جواره الطيبين دائماً.

ولكن كلمة صديقها بعثت أملا جديداً فى قلبها ، فكفت عن البكاء ، رغم ما ساور قلبها من شك وخوف .

قال :

ـ مسكينة يا صديقتى ، لقد أنهكك الحزن ، فخلى عنك قليلا ، وكونى كما عهدتك شجاعة ، وسوف أعينك على الاحتمال بجرعة منعشة .

وهرع يصعد السلم قفزاً ، وأسندت چو رأسها إلى عباءة بث البنية التى تركتها فى آخر مرة لها ، ولم يفكر أحد فى رفعها من مكانها فوق المنضدة . وكأنما كان فى لمس تلك العباءة سحر ، وكأنما بعث روح صاحبتها الطيبة فى چو إحساساً بالخضوع والرضا ، فما إن هبط لورى يحمل كأساً من النبيذ ، حتى تناولته باسمة وقالت فى شجاعة :

ـ لأشرب نخب صحة بث العزيزة . إنك طبيب ماهر يا تيدى ، وصديق صدوق .

وأنعشها الشراب قليلا ، كما أنعشتها كلمات صديقها ، وأراحت بالها . قالت :

ـ كيف أرد لك الجميل ؟

قال لورى وقد أشرق وجهه غبطة بأمر يفكر فيه ويكتمه فى نفسه :

ـ سوف أرسل لك « فاتورة » الحساب بعد قليل . وسوف أقدم

لك هذا المساء شيئاً يبعث فى قلبك حرارة أكثر من هذا الشراب .

قالت چو ، وقد نسيت أحزانها فى عجبها لقوله :

ـ ما هو ؟

قال :

ـ لقد أبرقت إلى والدتك أمس ، وتسلمت رداً من بروك بعودتها فوراً ، وستصل هذه الليلة فتتحسن الأمور . ألا يسرك هذا النبأ ؟

وكان الفتى يتكلم فى سرعة شديدة ، وقد احمر وجهه انفعالا ، لأنه أخفى الأمر سراً ، خشية أن يخيب أمل البنات لسبب من الأسباب ، أو أن تسوء حالة بث . وابيض وجه چو ، ثم قفزت واقفة من مقعدها ، فما إن انتهى من حديثه ، حتى طوقت عنقه بذراعيها وصاحت فى فرح :

ـ آه يا لورى ! أمى ستحضر ؟ ! إنى سعيدة إلى أبعد حد !

ولم تبك بعد ذلك ، بل راحت تضحك ضحكة هستيرية وهى ترتجف ، وتتشبث بصديقها كأنما هذا الخبر قد سلبها قوتها . ورغم دهشة لورى ، فقد تصرف تصرفاً حميداً ، فراح يربت على ظهرها ، فلما رآها تهدأ قليلا طبع على جبينها قبلة فى خجل ، وعندئذ تنبهت چو فأبعدته عنها ، واستندت إلى حاجز السلم ، وقالت :

ـ لا . . لا . . لم أقصد . . لقد كنت فى حالة سيئة من الحزن ، فلما سمعت بما فعلت على الرغم من أوامر حنا ، لم أملك إلا أن أعانقك .

قل لى بالله كل شىء ولا تعطنى مزيداً من هذا الشراب الذى جعلنى أفقد توازنى ووقارى .

قال الفتى وهو يضحك ويصلح رباط رقبته :

– إنى لا أمانع فيما فعلتِ ! المسألة وما فيها أن القلق زاد بى وبجدى وخيل إلينا أن حنا تبالغ فى استعمال حقها ، ورأينا من واجبنا أن نحيط أمك علماً بالأمر ، حتى لا تلومنا إذا أصاب بث مكروه . وعندما رأيت الوجوم على وجه الطبيب أمس ، ولست من غضب حنا ، لما طلبت منها أن تناديك ، أقنعت جدى بأن الوقت قد حان لأخطار أمك بالأمر ، وتسللت إلى مكتب البرق وأرسلت البرقية . وستحضر أمك فى قطار الساعة الثانية صباحاً ، حيث أستقبلها بنفسى ، وما عليك الآن سوى أن تلقى همومك جانباً ، وتحافظى على هدوء بث ، حتى تصل السيدة الطيبة إلى بيتها .

قالت چو :

– إنك ملك كريم يا لورى ، ولست أدرى كيف أوفيك حقك من الشكر . .

قال لورى ، وقد تجلت فى عينيه نظرة ماكرة ، لم ترها چو منذ أسابيع :

– أفضل أن تعانقينى مرة ثانية ...

قالت :

– لا . . شكراً . . أفضل أن أعانق جدك بالنيابة عنك عندما

يحضر ، فكف عن إغاظتى ، وعد إلى بيتك لتستريح ، فأمامك سهر طويل إلى ما بعد منتصف الليل . بارك الله فيك يا تيدى ! بارك الله فيك !

وخرج الفتى وهو يشعر أنه أتى أمراً عظيما حقاً ، وتقهقرت چو إلى جانب الحائط ، ثم انسلت إلى المطبخ ، وجعلت تحدث القطيطات بسعادتها البالغة . وعندما علمت حنا بالأخبار الطيبة ، قالت وقد انزاح عن قلبها حمل ثقيل :

— لم أر إنساناً يتدخل فى شئون الناس مثل هذا الفتى ، ولكنى أصفح عنه على كل حال ، وآمل أن تكون مسز مارش فى طريقها إلينا الآن .

واغتبطت ميج بالخبر ، وامتلأ قلبها براحة الهدوء ، وجعلت تفكر فى الخطاب الذى تكتبه ، وعكفت چو على غرفة المريضة ترتبها وتنظفها ، أما حنا فقد اتخذت احتياطها ، وأعدت فطيرتين لمن قد يحضر مع السيدة . وبدا كأن نسمة من الهواء النقى قد سرت فى البيت ، وأن ضوءاً يفوق أشعة الشمس بهاء قد غمر الغرف الساكنة ، وأن كل ما فى البيت اكتسى بالأمل والتفاؤل ، فغرد عصفور بث مرة ثانية ، وتفتحت وردة بين شجيرات آمى فى النافذة ، وأضاءت نيران الموقد المكان بضوء مرح ، وتعانقت الأختان الكبيرتان ، وكل منهما تقول للأخرى هامسة :

— إن والدتى قادمة يا عزيزتى ، إنها قادمة !

وشمل الحبور أفراد الأسرة عدا بث ، فقد رقدت فى فراشها غائبة

عن وعيها ، غير شاعرة بالأمل والسرور ، أو بالشك والخطر . . وكان منظرها يستدر الشفقة ، فهذا الوجه الذى كان مورداً صبوحاً ، صار نحيلا شاحباً ، وباتت الأيدى التى لم تكف عن العمل ترقد ضعيفة خائرة ، وهذه الشفاه الضاحكة أصبحت باهتة صامتة ، وهذا الشعر المرتب الجميل انتثر على الوسادة فى خشونة وفوضى . وانقضى اليوم والفتاة ترقد هكذا ، لا تفيق إلا لحظة قصيرة تتمتم فيها بشفتيها الباهتتين كلمة ماء ، وتنطقها بصوت خافت لا تكاد تتبينه الأذن ، وطول اليوم كانت چو وميج تهيمان فى أرجاء البيت ، ترقبان وتنتظران وتأملان خيراً فى رعاية الله وعناية الأم . وظلت الريح تصفر خارج البيت طول اليوم ، والثلج يتساقط من السماء على مضى ساعات النهار البطيئة المتوانية . وأخيراً هبط الظلام على الدنيا ، والأختان تجلسان على جانبى سرير المريضة ، وكلما دقت الساعة دقاتها ، التفتت الواحدة منهما إلى الأخرى بعين تلتمع راحة لقرب الفرج ، فلقد جاء الطبيب وقرر أن منتصف الليل سيكون لحظة حاسمة فى سير المرض ، عنده يتقرر مصير الصغيرة العليلة .

وكان التعب قد أعيا حنا ، فاستلقت على الأريكة بجوار السرير ، وسرعان ما غلبها النوم ، وجعل مستر لورنس العجوز يسير فى الردهة جيئة وذهاباً ، وهو يحس بأنه أقدر على مواجهة فرقة من العصاة من أن يواجه القلق المرتسم على وجه مسز مارش عند حضورها . ورقد لورى

على البساط متظاهراً بأنه يستريح ، ولكنه كان يحملق فى نيران المدفأة بنظرة ساهمة زادت سواد عينيه حلكة وصفاء .

وكانت ليلة ليلاء فى حياة چو وميج ، اختلطت اللهفة فيها بالانتظار ، وتعانقت الحيرة بالقلق .

همست ميج فى حرارة :

ـ إذا عفا الله عن بث وشفاها ، فلن أشكو همًّا طول حياتى ، ولن أتذمر من ضيق مهما بلغ .

وأجابت چو بنفس الحرارة :

ـ وسأكون ، إذا شفاها الله ، خير عبيده فى هذه الدنيا كلها .

فقالت ميج :

ـ لست أدرى كيف نقوى على الحياة إذا توالت فيها صعاب كهذه ؟!

وهنا دقت الساعة معلنة منتصف الليل ، ونسيت الفتاتان نفسيهما وهما ترقبان التغير الذى بدا لهما على وجه بث الشاحب . وكان البيت ساكناً كالقبر ، وليس من صوت يعكر سكونه سوى عويل الرياح فى الخارج . وكانت حنا المتعبة تغط فى نومها ، فلم ير أشباح الأسى التى تخيم فوق سرير المريضة غير أختيها . ومضت ساعة ثم خرج لورى فى هدوء ليستقبل القطار ، ومضت ساعة أخرى ولم تحضر أمهما ، وتملكت الفتاتين نوبة من القلق الشديد ، وخافتا أن يتأخر حضورها بسبب العاصفة أو حوادث القطر ، وكان أكثر ما تخشيان أن تسوء حالة الأب ،

فتضطر الأم إلى البقاء معه .

ووقفت چو تتطلع من النافذة إلى الدنيا الحا لكة تحت غطاء ثلجها الأبيض ، وكانت الساعة قد جاوزت الثانية ، عندما أحست بحركة فى سرير المريضة ، فالتفتت بسرعة لترى ميج راكعة أمام المقعد الذى اعتادت أمها أن تجلس فيه ، وقد أخفت وجهها فى كفيها . وسرى فى بدن چو رعب شديد ، إذ خيل إليها أن بث لفظت أنفاسها وأن ميج تخشى أن تخبرها بذلك . وعادت مسرعة إلى مكانها بجوار الفراش ، فرأت والرعب يملأ نفسها أن تغيراً واضحاً كسا وجه الراقدة ، فقد تلاشت عنه حمرة الحمى والألم ، وحل محلها تعبير من الهدوء والسلام والراحة ، أثار فى نفس چو رغبة شديدة فى البكاء أو العويل . فانحنت على أعز أخواتها تطبع على جبينها المبتل قبلة صدرت من قلبها ، وهمست :

ــ وداعاً يا بث ، وداعاً ! !

وكأن الحركة الصغيرة أيقظت حنا من سباتها ، فقامت مسرعة تتطلع إلى بث ، وتتحسس يديها ، وتستمع إلى الأنفاس المترددة من بين شفتيها ، وما لبثت أن ألقت بمرولتها جانباً ، وجلست تتمتم فى عجب :

ــ لقد زايلتها الحمى ، وهى تنام نوماً طبيعياً ، والعرق يندى جسدها وتنفسها هادئ منتظم . لك الشكر يا إلهى . . . لك الشكر ! !

وقبل أن تؤمن الفتاتان بقولها ، جاء الطبيب ليتأكد من زوال الخطر ،

وكان رجلا عادياً فى شكله ، ولكن ابتسامته بدت لهما ملائكية مشرقة ، قال :

ـ نعم إنها أحسن حالا ، وسوف تشفى عن قريب ، فاحتفظن بهدوء البيت لتنام ، فإذا استيقظت فأعطينها . . .

ولم تسمع الفتاتان ماذا يجب أن تجرع المريضة ، فقد رجعتا إلى الردهة المظلمة ، وجلستا على درجة السلم متلاصقتين ، تنعمان بلذة الحب الطيب ، ولا تقويان على التعبير عن سعادتهما بكلمة أو إشارة . وعندما عادتا إلى الحجرة ثانية ، طوقتهما حنا بذراعيها وقبلتهما ، ونظرت الفتاتان إلى بث فرأتاها ترقد فى سلام ، وقد انزاح عن وجهها امتقاعه السابق ، وترددت أنفاسها فى انتظام ، كأنها قد استسلمت إلى النوم لتوها .

وقالت چو وقد كاد الليل البارد ينقضى :

ـ ليت أمى تحضر الآن !

وقالت ميج وهى تمسك بوردة بيضاء بدأت تتفتح أوراقها :

ـ انظرى . . ظننت أن هذه الوردة لن تتفتح حتى نضعها فى يد بث إذا ما . . إذا ما ناداها الله إلى جواره ، ولكنها تفتحت فى أثناء الليل ، وسوف أضعها فى آنية الزهر ، حتى إذا ما صحت العزيزة من نومها ، كان أول ما يطالعها هذه الوردة الجميلة ووجه أمى العزيزة .

ولم تشرق الشمس فى جمال يعادل إشراقها ذلك الصباح ، ولم تبد

الدنيا أحلى مما بدت ، عندما فتحت الفتاتان جفونهما المثقلة بالنوم ، بعد أن انقضت ساعات الحزن والأسى .

وقالت ميج وهى ترقب من وراء ستار النافذة ، ضوء الصباح الباهر :

ـ أرى الدنيا اليوم حلماً جميلا .

وصاحت چو وهى تقفز واقفة :

ـ ما هذا ؟

فقد علت جلجلة أجراس العربة عند باب الدار ، وصاحت حنا مهللة ، وتعالى صوت لورى يقول فى مرح هادئ :

ـ لقد وصلت يا بنات ، لقد وصلت !

الفصل التاسع عشر

وصية آمى

بينما الأحداث تجرى فى بيت آل مارش ، كانت آمى تعانى الأمرين فى ضيافة عمتها ، فقد حزت فى نفسها مرارة النفى ، وأحست لأول مرة ، بمدى ما كانت تنعم به من حب أهلها وتدليلهم ، إذ كانت العمة مارش لا تدلل أحداً ولا تؤمن بالتدليل ، ولكنها كانت تظهر عطفها على الفتاة المهذبة التى وقعت من نفسها موقعاً حسناً . وكانت تكن لأولاد قريبها مودة فى قلبها العجوز ، ولكنها كانت تنكر على نفسها أن تعترف بها

صراحة ، ولذلك بذلت ما بوسعها فى توفير أسباب السعادة للفتاة الصغيرة . ولكن ما أكثر الأخطاء التى وقعت فيها خلال سعيها الطيب . إن بعض العجائز يحتفظون بقلوب فتية رغم التجاعيد التى تغشى وجوههم ، والمشيب الذى يكسو شعورهم ، فينسجمون مع الأطفال فى أمورهم ومسراتهم ، وتزول الكلفة فيما بينهم ، وبذلك يصبح فى مقدورهم إسداء النصيحة بطريقة محببة ، تقابلها الصداقة والعطف الحلو . ولكن العمة مارش لم ترزق هذه الهبة ، فأنهكت الفتاة بسيل من القواعد والأوامر الدقيقة تصوغها فى عبارات ومحاضرات طويلة . وكانت آمى أكثر من أختها چو هدوءاً ومسالمة ، فرأت العجوز أن تقومها ، لتعالج الأثر السيئ للحرية المطلقة التى نشأت عليها الفتاة . فاستبدت فى معاملتها ، كما كانت أمها تستبد بها منذ ستين عاماً ، مما أثار نفس آمى ، وجعلها تشعر كأنها ذبابة ضعيفة وقعت فى براثن عنكب شرير .

وفرضت عليها كل صباح أن تغسل الفناجين ، وتمسح الملاعق ، وتلمع إبريق الشاى الفضى ، وتنظف زجاج النوافذ ، ثم عليها بعد ذلك أن تنفض الغبار عن الحجرة وهو أمر عسير . ولم تكن عينا العمة مارش تغفلان عن أى إهمال يصدر من الفتاة ، ولم يكن يفوتهما أقل غبار يبقى بين ثنايا نقوش المفروشات القديمة . ولذلك كان على آمى أن تعمل بجد واجتهاد ، فإذا انتهت من واجباتها الكثيرة ، أطعمت الببغاء ، ومشطت شعر الكلب المدلل ، ونزلت السلم وصعدته عشرات المرات ،

تؤدى الخدمات وتبلغ الأوامر عن عمتها العرجاء التى لا تكاد تغادر مقعدها . وبعد كل هذا النصب تجلس إلى دروسها تستذكرها ، وعند ذلك يسمح لها بساعة تقضيها فى الرياضة واللعب . وكان لورى يحضر كل يوم ، ويظل يلح على العمة مارش ، حتى تصرح لآمى بالخروج معه ، لترفه عن نفسها بالنزهة فى العربة أو سيراً على الأقدام . وبعد تناول الطعام ، تقرأ الفتاة للعجوز بصوت مرتفع ، ثم تجلس ساكنة عندما تغفى العمة ، وهى عادة تنام على كرسيها ساعة ، فإذا صحت يبدأ التطريز وشغل الإبرة ، فتظل الفتاة تعمل فى هدوء ظاهر ، وثورة مكبوتة حتى يحل الغسق ، فتطلق لها الحرية إلى موعد الشاى . ثم يأتى المساء ، وهو أفظع ما فى اليوم ، إذ تشرع العمة مارش تقص قصصاً لا تنتهى عن شبابها ، وغالباً ما تكون القصص قابضة ، حتى يحين موعد النوم ، فتذهب الفتاة إلى فراشها ، وفى نيتها أن تبكى فيه ما شاء لها البكاء ، ولكن ما إن تذهب فعلا إليه حتى يغلبها النعاس ، قبل أن تعتصر من عينيها دمعة أو دمعتين . ولولا زيارات لورى ، ولولا أستر خادم عمتها ، ما أمكن آمى أن تحتمل الوقت العصيب الذى تقضيه فى بيت عمتها ، فقد كان الببغاء وحده ، يسبب لها عذاباً شديداً ، بعد أن شعر بكراهيتها له ، فراح ينتقم منها بكل ما يعرفه من وسائل المكر والخبث . كان يشد شعرها كلما اقتربت منه ، أو يغيظها فيقلب وعاء طعامه ومائه بعد أن تنتهى من تنظيف قفصه ، أو يثير الكلب المدلل بأن ينقره ، فينبح أثناء

نوم السيدة ، كما كان يسبها ويشتمها أمام الزوار ، وبالاختصار كان يعمل كل ما يمكنه لازعاجها وتعذيبها . وكان هناك أيضاً ذلك الكلب المدلل السمين الغضوب ، الذى لا ينقطع عن النباح ، ولا يكف عن التكشير عن أنيابه كلما تولت أمر نظافته وتمشيط شعره ، أو يرقد على ظهره ويرفع أرجله فى الهواء معاكساً مشاكساً ، أو يبدى جميع حركات الغباوة والسماجة إذا أراد شيئاً يأكله ، وهو أمر يحدث عشرات المرات فى أثناء النهار .

وبالإضافة إلى هذا كله ، كانت هناك الطاهية الحمقاء الغضوب وسائق العربة الأصم ، ولم يكن فى البيت من يعطف على آمى سوى الخادم أستر .

وكانت أستر هذه فرنسية الأصل ، عاشت مع « المدام » ، كما كانت تسمى العمة مارش ، سنوات طويلة ، وكانت متعنتة مع السيدة العجوز ، لعلمها بأنها لا يمكن أن تستغنى عنها . وكان اسمها الحقيقى أستل ، وقد طلبت منها العمة مارش أن تغير اسمها بأستر ، وقد رضيت بشرط أن لا تطلب منها السيدة أن تغير دينها بعد ذلك . وقد عطفت الخادم على « المدموازيل » ، فكانت كلما أتيحت لها فرصة الجلوس معها ، تقص عليها أغرب القصص عن حياتها فى فرنسا ، كما سمحت لها بالتجول فى أنحاء البيت الكبير تفحص ما به من التحف والغرائب المحفوظة فى الأصونة والصناديق القديمة ، والتى طفقت مسز مارش تختزنها فيها على مر السنوات

وكان أكثر ما تحبه آمى ، أن تفحص صواناً هندياً ، به أدراج ورفوف ومخابئ سرية ، امتلأت جميعها بغرائب وتحف ، بعضها ثمين وبعضها تافه . وكان أعظم ما يسعدها أن ترتب هذه التحف وتصفها ، خصوصاً صندوق الحلى المبطن بالمخمل ، إذ كان يحتوى على كثير من الحلى التى عرفها النساء منذ أربعين عاماً . وكان بالصندوق مجموعة من الياقوت تتحلى بها العمة عند خروجها ، وعقد لؤلؤى أهداها إياه أبوها يوم زفافها ، ثم ماسات زوجها وخواتمه ودبابيسه وخصلة شعره ، وكذلك صور أصدقاء ماتوا ، وأساور طفلتها الوحيدة التى فقدتها رضيعة . هذا إلى جانب ساعة العم مارش التى تتدلى منها حلية حمراء ، طالما عبثت بها أيدى أطفال عديدين . وفى صندوق آخر حفظت العمة خاتم زواجها بعد أن ضاق قطره عن أصبعها السمين .

وقد سألتها أستر يوماً ، وهى تجلس إلى جانبها ترقبها وهى تفحص هذه التحف :

ــ أية قطعة من هذه الحلى تحب المدموازيل أن توصى بها عمتها لها ؟

قالت آمى ، وهى تنظر فى إعجاب إلى عقد ذهبى مطعم بخشب الآبنوس ، وقد تدلى منه صليب ثقيل من المعدن المنقوش نفسه :

ــ هذه الماسات تعجبنى كثيراً ، ولكنى لا أرى بينها قلادة واحدة . وبما أنى أريد قلادة أزين بها عنقى ، فليس أمامى سوى أن أختار هذا العقد الذهبى .

فقالت أستر وهى تنظر بإعجاب إلى الحلية الذهبية :

– إنها تعجبنى أيضاً ، ولكنى أفضل أن أستعملها كتعويذة ، لأننى امرأة متدينة .

فسألتها آمى :

– أتعنين أنك تفضلين أن تستعمليها كالمسبحة الخشبية ، التى تعلقينها فوق مرآتك ؟

قالت :

– نعم ، لأصلى بها ، فهذا يرضى القديسين ، أكثر مما يرضيهم أن ألبسها للزينة والبهرج .

قالت الفتاة :

– إنك تستمدين من الصلاة راحة النفس وهدوءها ، فليتنى كنت مثلك !

قالت :

– لو كنت كاثوليكية مثلى لأحسست بالراحة عند الصلاة ، ولكنك بروتستنتية ، فمن الخير أن تفعلى مثلما كانت تفعل مخدومتى السابقة ، إذ كانت تنفرد كل يوم بنفسها تفكر وتتأمل وتصلى أمام المذبح الذى أقامته فى بيتها ، فتجد فى ذلك راحة وسلواناً .

وكانت آمى تشعر فى وحدتها هذه بحاجة إلى ما يعينها ، ولم تكن تقرأ فى كتاب النصائح إلا نادراً ، إذ لم يكن يذكرها بالقراءة فيه غير

بث . فقالت تسأل الخادم :

ـ أمن الصواب أن أفعل ما تنصحين به ؟

قالت :

ـ من غير شك ! سوف تشعرين بمنتهى الراحة والهدوء ، فإذا وافقت على اقتراحى ، هيأت لك مذبحاً للصلاة فى حجرة الملابس الصغيرة . فلا تذكرى الأمر لعمتك ، وعندما تنام اذهبى واجلسى وحيدة ، ولا تفكرى إلا فى الخير ، واضرعى إلى الله أن يحفظ أختك المريضة .

وكانت أستر امرأة رقيقة القلب متدينة ، تحس بما تعانيه الفتاة من قلق نحو أختها ، فاطمأنت آمى إلى نصيحتها ، وقبلت أن تهيئ المذبح فى الحجرة الصغيرة المجاورة لحجرتها ، راجية أن يكون الخير فيما تعمل .

وراحت تعيد التحف والحلى إلى مكانها قطعة بعد قطعة ، فلما انتهت أغلقت العلبة ، ثم قالت :

ـ ليتنى أعرف إلى من تؤول هذه التحف الجميلة بعد موت العمة مارش .

فهمست أستر تقول باسمة :

ـ ستؤول إليك وإلى شقيقاتك ، فلقد أخبرتنى « المدام » بذلك ، كما أنى كنت شاهدة على وصيتها .

فقالت آمى وهى تلقى نظرة أخيرة على الماسات :

ـ جميل جداً ! ولكنى أتمنى لو أمكن أن نأخذها ، فإنى أحب الخيرات العاجلة لا الآجلة .

قالت :

ـ ولكنكن صغيرات بعد ، ولا يجوز لكن التزين بالجواهر . وقد قالت لى « المدام » بأنها ستهدى أول من تتزوج منكن عقد اللآلئ . وأعتقد أنها ستعطيك الخاتم الفيروز عند عودتك ، لأنى أرى عليها دلائل الرضا عن سلوكك وأخلاقك الحميدة .

قالت آمى وهى تجرب الخاتم المنشود على أصبعها ، وقد شاع السرور فى وجهها ، والعزم على الحصول عليه فى نفسها :

ـ أتعتقدين ذلك حقاً ؟ والله لو كان صدقاً ما تقولين ، لأصبحت فى وداعة الحمل وخضوعه ! إنه أبدع كثيراً من خاتم كيتى برايانت . إنى أحب العمة مارش رغم كل شىء !

ومنذ تلك اللحظة صارت مثلا للطاعة ، مما أشاع الرضا فى نفس السيدة العجوز بنجاح طريقتها فى التربية . وراحت أستر تعد المذبح فى الحجرة الصغيرة ، فأحضرت منضدة صغيرة ووضعت أمامها وسادة للركوع ، كما وضعت صورة للعذراء فوق المائدة أخذتها من بين تحف « المدام » ، مطمئنة إلى أنها قليلة القيمة ، ولن تغضب السيدة إذا كشفت فقدها من صندوقها . ولكن الصورة لم تكن فى الحقيقة تافهة كما ظنت أستر ، بل كانت نسخة ثمينة جداً لإحدى روائع الفن العالمى .

وقد أحست آمى بجمالها وعظمتها ، فكانت لا تكل من التطلع إليها ، وقلبها مفعم بالآمال الحلوة والأفكار السعيدة . ووضعت فوق المائدة أيضاً إنجيلا وكتاب الصلاة ، وآنية للزهور اليانعة التى يأتيها بها لورى . وفى كل يوم تجلس وحيدة تفكر وتتأمل ، وتصلى إلى الله أن يحفظ أختها ، وكانت أستر قد أعطتها صليباً خشبياً بسيطاً تعلقه على صدرها وهى تصلى ، ولكن عقيدتها البروتستانتية أبت عليها أن تفعل ذلك ، فقنعت بتعليقه على الحائط .

وكانت مؤمنة كل الإيمان بما تفعل ، فقد جعلها بُعدها عن بيتها ، تشعر بحاجة إلى قوة مشجعة ، ولذلك توجهت إلى الله ضارعة أن يرعى الكبار والصغار ويساعدهم على متاعبهم . ولم تكن أمها بجانبها ترشدها ، ولكن التعاليم التى أخذتها عن أبيها ، أحسنت توجيهها إلى الطريق الصحيح دون أن تشعر . وحاولت أن تنسى نفسها وهمومها ، وأن تحتفظ بالبشر والرضا بواجباتها . وفى غمرة حماستها الدينية ، قررت أن تحذو حذو عمتها ، فتكتب وصيتها ، حتى إذا مرضت أو ماتت ، توزعت ممتلكاتها بالعدل بين ورثتها . وأحست برجفة الخوف لمجرد تفكيرها فى التنازل عن كنوزها الصغيرة ، التى بدت فى عينيها غالية ثمينة كمجوهرات عمتها العجوز .

وفى ساعة من ساعات لهوها كتبت الوثيقة الهامة ، كأحسن ما تستطيع أن تكتبها ، وأضافت إليها بعض فقرات قانونية بمساعدة أستر . فلما

انتهت الفرنسية الطيبة من توقيع الوصية كشاهدة ، أحست آمى براحة كبيرة ، واحتفظت بالورقة جانباً فى انتظار لورى ، كى يكون الشاهد الآخر عليها . ولما كان الجو مطيراً ، صعدت تسلى نفسها فى إحدى القاعات الفسيحة واصطحبت الببغاء معها يسليها . وكان بالغرفة خزانة ملابس كبيرة عامرة بالثياب القديمة . فسمحت لها أستر بأن تلعب بها .

وكانت تسلية كبيرة للفتاة أن تلبس هذه الملابس الباهتة ، وتستعرض شكلها فيها أمام المرآة ، فمرة تنحنى فى تحية رشيقة ، ومرة تسحب الذيول الطويلة فتسمع لها حفيفاً يسر أسماعها . وفى شغلها بمتعتها العظيمة ، لم تسمع لورى وهو يدق الجرس ، ولم تره كذلك وهو يسترق النظر إليها فى أثناء تثنيها وسيرها أمام المرآة ، وهى تداعب مروحتها ، وتهز رأسها المعممة فى حرير وردى ، فى تيه ودلال . وكانت تلبس حذاء عالى الكعب ، فراحت تسير فى بطء وحذر . وكان منظرها مضحكاً وهى تتيه فى الثوب البراق ، ومن خلفها الببغاء يسير مقلداً إياها ، أو واقفاً يضحك قائلا فى عجب :

ـ ألسنا مدهشين ؟ هيا أيها المزعج ! أمسك لسانك ! قبلنى يا عزيزى . . ها . . ها . .

وأثار منظر آمى رغبة لورى فى الضحك ، ولكنه كبت هذه الرغبة ، خشية أن يجرح كبرياءها ، وطرق الباب فى رقة يعلن قدومه ، فقالت آمى وهى ترجع الثياب إلى الخزانة :

ـ اجلس واسترح حتى أضع هذه الأشياء فى أماكنها ، وبعد ذلك سوف أستشيرك فى أمر على جانب كبير من الأهمية .

ثم أردفت وهى تعيد الببغاء إلى ركنه ، ثم تفك العمامة الوردية من فوق رأسها :

ـ إن هذا الطائر محنة حياتى .

وجلست على مقعد ، بينما جلس لورى على مقعد آخر قبالتها .

قالت :

– بالأمس راحت العمة فى غفوتها بعد الغداء ، وجلست أنا هادئة ساكتة كالفأر ، فإذا بهذا الطائر يصيح ويضرب بجناحيه فى قفصه ، وذهبت لأطلق سراحه ، فرأيت بالقفص عنكباً كبيراً ، هبط يجرى تحت خزانة الكتب ، ومن ورائه الببغاء الذى راح يحنى رأسه ويطل على العنكب ويقول له فى لهجته المضحكة :

– اخرج يا عزيزى ، وهيا بنا نتنزه قليلا سيراً على الأقدام .

ولم أتمالك نفسى من الضحك ، مما جعل الببغاء يشتمنى ، فاستيقظت العمة وأنبتنا نحن الاثنين .

فقال لورى وهو يتثاءب :

– وهل قبل العنكب الدعوة ؟

قالت :

– نعم ، فقد خرج من تحت الخزانة بسرعة ، مما أفزع الببغاء فزعاً مميتاً ، فولى الأدبار ، وارتطم بساقى العجوز ، وراح يصيح : « امسكوه . . امسكوه . . امسكوه . . » وانطلقت أنا أجرى وراء العنكب .

فصاح الببغاء ، وهو ينقر قدم لورى :

– هذا كذب ، والله . .

فصاح لورى بدوره ، وهو يهز قبضته فى وجه الطائر :

ـ لو كنت ببغائى ، ما توانيت عن كسر عنقك ، أيها العجوز الوقح .

وطأطأ الطائر رأسه وقال بصوت أجش :

ـ كلام فارغ !

قالت آمى ، وهى تغلق خزانة الملابس ، وتخرج ورقة من جيبها :

ـ أنا الآن مستعدة ، أريد منك أن تقرأ هذه ، من فضلك ، وأن تخبرنى إن كانت قانونية أم لا . إن الحياة غير مضمونة ، وأرى من واجبى أن أكتبها ، حتى لا يذكرنى أحد بسوء فوق قبرى .

وراح الفتى يقرأ الوثيقة ، متظاهراً بالوقار والثبات . وكانت كما يأتى :

« آخر وصية لى

« أقرر أنا آمى كورتيس مارش ، وأنا فى كامل عقلى ووعيى ، أننى أوصى بممتلكاتى الشخصية أمام الشهود الموقعين أدناه ، كالآتى بالاسم :

« أوصى لأبى بجميع صورى ولوحاتى وخرائطى وأعمالى الفنية ، بما فى ذلك الإطارات الخشبية . وكذلك أوصى له بالمائة دولار التى أملكها يتصرف فيها كما يشاء .

« وأوصى لأمى بملابسى ، ما عدا مرولتى الزرقاء ، ذات الجيوب ، وكذلك أوصى لها بأيقونتى مع حبى البالغ .

« وأوصى لأختى العزيزة مارجريت بخاتمى الزبرجدى (إذا كنت سأحصل عليه)، وبصندوقى الأخضر وما فيه من حمائم ، وبقطعة الدنتلا الحريرية ، وكذلك بالرسم التخطيطى الذى عملته تذكاراً .

« وأوصى لجو بمشبك الصدر الذى أصلحته بالشمع الأحمر ، وبمحبرتى البرونزية ذات الغطاء المفقود ، وبأغلى تمثال صلصالى صنعته لأرنب ، كل ذلك لأكفر عن خطأى السابق بإحراق قصتها .

« وإذا عاشت بث بعدى ، أوصى لها بجميع عرائسى ، وبصوان الزينة ، وبمروحتى ، وببنيقاتى التيل وخفى الجديد ، وأعتقد أنه يناسبها الآن ، لأنها ستكون نحيفة بعد شفائها من المرض . وأشهد هنا أيضاً أننى أعتذر لها عن ضحكى من عروستها چوانا ، وسخريتى الدائمة بها .

« أوصى لصديقى وجارى تيودور لورنس بحافظة أوراق رسومى ، وبتمثال الحصان الذى عملته من الصلصال ، رغم ما يقوله من أن الحصان بلا رقبة . ومكافأة له على لطفه وطيبته ، له أن يختار ما يعجبه من رسومى الفنية التى أعتقد أن صورة نوتردام أجملها .

« وأوصى لحامينا الطيب مستر لورنس بصندوقى الأرجوانى ذى الغطاء الزجاجى ، لأنه يصلح لوضع أقلامه ، كما أنه سيذكره بصاحبته الراحلة التى تشكره على أفضال كثيرة غمر بها أفراد الأسرة كلهم خصوصاً بث .

« كما أحب أن تأخذ صديقتى كيتى برايانت مرولتى الحريرية

وخاتمى الذهبى مع قبلاتى .

« وأوصى لحنا بالصندوق الذى أعجبها ، وبأدوات الحياكة ، حتى تذكرنى كلما استعملتها .

« والآن ، وقد وزعت أغلى ممتلكاتى ، آمل أن يكون ورثتى راضين ، ولا يلومونى بعد موتى . وإنى أصفح عنهم جميعاً ، مؤمنة بأننا سنتقابل يوم ينفخ فى الصور .

« آمين .

« وإنى أوقع على هذه الوثيقة بيدى وختمى فى اليوم العشرين من «شهر نوفمبر .

آمى كورتيس مارش

« شهود :

« أستيل فالنور

« تيودور لورنس »

وكان اسم لورنس مخطوطاً بالقلم الرصاص ، وطلبت آمى من لورى أن يعيد كتابته بالحبر ، وأن يضع الوصية فى مظروف ويقفله جيداً .

فقال لورى فى وجوم ، عندما ألصقت آمى شريطاً أحمر على المظروف ، وثبتته بالشمع الأحمر وختمته :

ـ ما الذى جعلك تفكرين فى كتابة هذه الوصية ؟ هل قال لك أحد بأن بث توزع ممتلكاتها ؟

فشرحت له آمى سبب كتابتها لوصيتها ، ثم سألته :

ــ قل لى ماذا صنعت بث ؟ هل كتبت وصية هى الأخرى ؟

قال :

ــ يؤسفنى أن أخوض فى هذا الموضوع ، ولكن ما دمت قد ذكرته فسأقول لك ما جرى . لقد أحست يوماً بأنها فى حالة سيئة ، فقالت لحو بأنها تود لو أخذت ميج المعزف ، وبأن تأخذى أنت عصفورها ، وبأن تأخذ چو دميتها المسكينة لأنها ستحبها من أجل بث . وقالت بأنها آسفة لتفاهة ما تتركه لأخواتها ، وأوصت بخصلات من شعرها لبقية أفراد الأسرة ، وبحبها لجدى . ولكنها لم تفكر أبداً فى كتابة وصية كهذه .

وكان لورى مطرقاً فوق المظروف ، ولم يرفع رأسه إلا عندما سقطت دمعة كبيرة على الورق ، وأفعمت نفس آمى بالاضطراب ، ولكنها قالت :

ــ أليست العادة أن يكتب شىء على المظروف الخارجى ، زيادة على ما جاء فى الوصية ؟

قال :

ــ نعم ، وتسمى تعديل الوصية .

قالت :

ــ إذاً اكتب تعديلا بأنى أريد أن توزع خصلات شعرى كلها على جميع أصدقائى . لقد نسيت أن أقول ذلك ، وإن كنت أكره أن تقص

خصلاتى كلها ، فيصبح شكلى قبيحاً فى موتى .

وأضاف لورى ما أرادت وهو يبتسم من آخر تضحياتها وأكبرها .

وراح يسليها ساعة ، وعندما استأذنها فى الذهاب ، انتحت به جانباً ، وقالت وشفتاها ترتجفان :

ــ هل هناك خطر حقيقى على حياة بث ؟

قال وهو يربت على ظهرها مهدئاً :

ــ أخشى أن يكون ذلك صحيحاً ، ولكننا نأمل فى الخير دائماً .. لاتبكى هكذا يا عزيزتى .

وعندما غادرها ، ذهبت إلى مذبحها الصغير ، وفى ضوء الغسق جلست تصلى من أجل بث ، والدموع تنهمر من عينيها ، وكان قلبها يعتصره الألم ، وأحست أن ملايين الخواتم الزبرجدية ، لن تعزيها عن فقد أختها الصغيرة اللطيفة .

الفصل العشرون

أمور عائلية

إن الكلمات تعجز عن وصف اللقاء بين الأم وبناتها ، ومن أصعب الأمور أن نصف الساعات الجميلة فى الحياة ، ولذلك نترك الوصف لخيال القارئ يصوره كما يشاء ، ويكفى أن نقول إن البيت أفعم بالسعادة الحقيقية والهناء العظيم . وصدقت نبوءة ميج ، فما إن استيقظت بث من نومها المريح الشافى ، حتى طالعها شيئان : وردتها البيضاء المتفتحة ، ووجه أمها العزيز الباسم . وكانت ضعيفة خائرة القوى ، فابتسمت ،

واكتفت بأن ترقد وادعة بين الذراعين الحبيبين ، وقد أحست بأنها قد أرضت فى النهاية قلبها ، الذى كان يتحرق شوقاً إلى أمها . وعادت الصغيرة إلى النوم ثانية ، وقد أطبقت يدها الواهنة على يد أمها ، ولم ترض الأم أن تسل يدها من قبضتها حتى فى منامها ، فجلست ساكنة ومن حولها بناتها يقمن على راحتها . وكانت حنا قد أعدت إفطاراً شهياً للقادمة ، راجية أن يهدئ العمل انفعالها ، وراحت ميج وچو تطعمان الأم كأنهما طيران حنونان ، فى حين جعلت الأم تروى لهما أخبار أبيهما ، فأخبرتهما كيف أن مستر بروك تخلف عن العودة ، ليقوم على خدمة الأب فى المستشفى ، وكيف أخرت العاصفة وصول القطار ، وكيف ارتاحت نفسها لمرأى لورى متفائلا ، فزال عنها قلقها وحزنها .

وطلع اليوم التالى مشرقاً رغم مفاجآته : ضوء باهر فى خارج البيت ، يزيد بياضه الثلج المتراكم على الأرض ، وهدوء شامل فى داخله ، إذ كان التعب والقلق والنصب قد أنهك الأسرة ، فنام أفرادها نوماً هادئاً . جلست حنا على باب الغرفة تغفى ، وأغمضت ميج وچو عيونهما ، وقد انزاح عن قلبيهما حمل عظيم ، فاستسلمتا لنوم عميق ، بعد عواصف الأحداث السابقة . وأبت مسز مارش أن تغادر فراش المريضة ، فنامت فى مقعدها الكبير ، وبين الفينة والفينة ، تصحو وتنظر إلى بث وتتحسس يدها ، وتحدب عليها كما يحدب البخيل على كنوزه وذهبه .

وذهب لورى إلى آمى يطمئنها على أختها ، ويخبرها بمجىء أمها ،

وحدثها مسهباً بما جرى فى الليلة السابقة ، وكان دقيقاً فى وصفه ، حتى لم تقو العمة مارش على كتم عبرة صغيرة طفرت من عينها لشدة تأثرها ، كما أنها لم تردد جملتها المعهودة « ألم أقل لك ذلك ؟ » . وبعثت الأخبار قوة فى آمى جعلتها تعتقد بأن صلاتها قد آتت ثمارها ، فجففت دمعها ، وكبتت شوقها إلى رؤية أمها ، عندما أقرت العجوز للورى بأن آمى قد تصرفت تصرف « السيدة المهذبة » . وحتى الببغاء بدا كأنه يوافق على هذا القول ، فراح يصيح قائلا بأنها « فتاة » طيبة ، وأنه « يدعوها للنزهة سيراً على الأقدام » . وكان بود الفتاة أن تخرج لتتنزه كما اعتادت كل يوم ، ولكنها أشفقت على لورى من المتاعب التى تجشمها ، والنوم الذى يغالبه فى بطولة ورجولة ، فرجته أن يستلقى على الأريكة مرتاحاً ، ريثما تكتب كلمة لأمها . واستغرقت الكلمة وقتاً طويلا ، فلما عادت الفتاة ، كان لورى ممدداً على الأريكة ، وقد توسد ذراعه وراح فى سبات عميق ، فأسدلت العمة مارش الستائر ، وجلست ساكنة ، فى نوبة نادرة من الطيبة والتضحية .

ومضت الساعات والفتى نائم نوماً عميقاً ، حتى خيل إليهما أنه لن يستيقظ قبل حلول المساء ، وكان من المحتمل أن يحدث ذلك ، لولا صيحة الفرح التى أطلقتها الفتاة عندما شاهدت أمها تدخل عليها . وربما كان فى المدينة فتيات سعيدات فى ذلك اليوم ، ولكن ما من شك فى أن آمى كانت أسعدهن ، وهى تجلس فى حجر أمها تقص عليها

ما مر بها من شدائد ، وتتلقى منها بسمات المواساة والتعزية .

وأرتها الفتاة المذبح الذى شيدته ، فلم تمانع أمها فيه ، إزاء الغرض النبيل الذى أقيم من أجله ، وقالت :

– على الضد يا عزيزتى ، إنه يعجبنى كثيراً ، وليس أجمل من أن يكون للإنسان مكان هادئ يصلى فيه إذا ما تعقدت الأمور وساءت . إن حياتنا مليئة بالمتاعب ، ولكن من السهل أن نتغلب عليها إذا اتبعنا الطريق الصحيح ، ولعلك أدركت الآن راحة الإيمان يا فتاتى .

قالت آمى :

– نعم يا أماه ، وسوف أهيئ ركناً صغيراً فى حجرتى ، أضع فيه هذه الكتب ، وأعلق فيه هذه اللوحة التى نسختها من صورة العذراء . حقيقة أننى لم أنجح فى نسخها كما يجب ، فوجه السيدة ليس جميلا كالأصل ، ولكن الطفل الذى تضمه لا بأس به . إن شعورى بأن المسيح كان طفلا فى يوم من الأيام ، يقربه إلىّ كثيراً ، ويشجعنى على التوجه إليه بمتاعبى .

وكانت الفتاة تجلس على حجر أمها ، وتشير بأصبعها إلى الصورة ، فرأت الأم فى الأصبع ما جعلها تبتسم . ورغم أن مسز مارش لم تقل شيئاً ، فإن الفتاة فهمت معنى بسمتها ، فترددت برهة ثم قالت فى جد :

– كنت أنوى أن أحدثك عن هذا ، غير أننى نسيت . لقد دعتنى عمتى اليوم وقبلتنى ، وقالت إنها تفخر بى ، وتحب أن أبقى عندها دائماً ،

ثم ألبستنى هذا الخاتم فى أصبعى هدية أحتفظ بها . إنه من الزبرجد ، وهو واسع قليلا على أصبعى ، ولكنه يعجبنى ، فهل أستطيع أن ألبسه يا أماه ؟

ونظرت مسز مارش إلى اليد البضة ، وقد تحلت بالأحجار النفيسة الجميلة ، وقالت :

ــ لست أشك فى أنه جميل ، ولكنك ما زلت صغيرة السن ، ولا يصح أن تتزينى بالجواهر .

قالت آمى :

ــ سأحاول أن لا أتيه به عجباً ، وليس تعلقى به لجماله فحسب ، بل أحب أن ألبسه ليذكرنى بشىء .

فسألتها أمها ضاحكة :

ــ بالعمة مارش ؟ ؟

قالت آمى فى لهجة مخلصة حارة ، جعلت الأم تمسك عن الضحك ، وتصغى إلى حديثها باحترام :

ــ لا ، ولكن ليذكرنى دائماً بأن أنكر أنانيتى وأحاربها فى نفسى . لقد أطلت التفكير أخيراً فى مجموعة رذائلى ، فوجدت أن الأنانية أكبرها . وقد قررت أن أشفى نفسى منها ما استطعت . إن حب الناس كلهم لبث ، وخوفهم الشديد على حياتها ، ورغبتهم الصادقة فى شفائها ، يعود إلى إنكارها لذاتها وخلو نفسها من الأنانية . أما أنا فلن يأسف أحد

علىّ إذا مرضت ، وهذا أقل ما أستحق ، ولذلك ساحاول أن أحذو حذو بث ما أمكن ، حتى أجتذب القلوب ، وأغريها بالعطف علىّ . إنى أقرر لنفسى عادات واتجاهات طيبة ، ولكنى لا ألبث أن أنساها ، ولذلك أحب أن أستصحب معى شيئاً يذكرنى بها ، وهذا الخاتم خير سبيل إلى التذكرة على ما أعتقد ، أفتسمحين أن أجربه ؟

قالت الأم :

ـ نعم ، لك أن تلبسيه كما تحبين ، ولكنى أكثر ثقة بأثر الركن الذى سوف تشيدينه فى غرفتك ، ويقينى أنك تكسبين نصف المعركة إذا ما اقتنعت بجمال إنكار الذات . والآن يجب أن أعود إلى بث ، فاجمعى شجاعتك يا بنيتى الصغيرة ، ولن يمضى وقت طويل حتى يجتمع شملنا مرة ثانية .

وبينما كانت ميج تكتب فى المساء خطاباً لأبيها ، تخبره فيه بسلامة وصول أمها ، انسلت چو إلى حجرة بث حيث تجلس أمها ـ كعادتها ـ فى المقعد الكبير ، ثم وقفت خلفها وهى تعبث بأصابعها فى شعرها القصير وقد بدا عليها الشرود والحيرة ، فأمسكت الأم بيد چو ، وقالت ، وفى عينيها نظرة تبعث على الثقة :

ـ ماذا يحيرك يا چو ؟

قالت :

ـ أريد أن أحدثك فى أمر يا أماه .

قالت :

ـ بشأن ميج ؟

قالت چو :

ـ ما أسرع إدراكك للأمور ! نعم إنه بشأن ميج . هى أمور تافهة ، ولكنها تقلقنى بعض القلق .

فقالت الأم فى لهجة حادة نوعاً :

ـ إن بث نائمة ، فتكلمى فى صوت منخفض ، وقولى ما يقلقك . آمل أن لا يكون ذلك الفتى موفات قد جاء إلى هنا فى غيبتى ؟

قالت وهى تجلس على الأرض عند قدمى أمها :

ـ لا ، لو أنه حضر لأغلقت الباب فى وجهه ، الأمر يختص بشخص آخر ، ولعلك تذكرين أن ميج تركت قفازها فى صندوق بريد آل لورنس فى الصيف الماضى ، ولكننا لم نجد منه سوى فردة واحدة ، ولقد نسينا أمرها إلى أن أخبرنى لورى ذات يوم ، بأن بروك يحتفظ بالفردة المفقودة فى جيب صداره ، ولقد سقطت مرة أمام لورى ، فلما سأله عن سرها ، قال مستر بروك إنه معجب بميج ، ولكنه لا يجرؤ على التصريح بذلك ، لأنها ما زالت صغيرة ، وهو ما زال فقيراً . . ألا ترين معى أن الأمر مخيف بهذا الوضع ؟

قالت مسز مارش فى لهفة :

ـ أتظنين أن ميج تهتم بأمره ؟

صاحت چو بلهجة اختلط فيها الاهتمام بالاحتجاج :

ـ وكيف أعرف وأنا أجهل ما يكون بمسائل الغرام وسخافاته ؟ ؟ إن الفتيات فى القصص يظهرن الغرام بإجفالهن واحمرار وجوههن خجلا ، وبإغمائهن ونحول أجسادهن ، وتصرفاتهن الخرقاء . ولكنى لا أرى هذه العوارض على ميج ، فهى تأكل وتشرب وتنام كأى إنسان عاقل ، وإذا ما حدثتها عن الرجل ، نظرت إلىّ بعين ثابتة ، دون أن يحمر وجهها ، إلا فى بعض الأحيان ، عندما يقص تيدى فكاهات عن العاشقين والمحبين . ولقد منعته ونهرته دون جدوى .

قالت :

ـ إذاً فأنت لا تعتقدين أن ميج تهتم بأمر چون ؟

صاحت چو مجفلة :

ـ من ؟

قالت :

ـ مستر بروك ، إنى أدعوه چون الآن ، بعد أن زالت الكلفة بيننا فى المستشفى ، وهو يرحب بهذه التسمية .

قالت چو وهى تشد شعرها بعنف وغيظ :

ـ يا إلهى ! كنت على يقين من أنه سيلعب ذلك الدور ، فيظهر الاهتمام والعناية بأبى ، وعندئذ لن ترفضيه زوجاً لميج . . .

يا للوضاعة ! يغرق أبى فى العناية ، ويمعن فى استرضائك ، حتى ينال رضاكما عنه .

قالت الأم :

ـ لا تثورى ولا تغضبى يا عزيزتى ، وسأحدثك كيف سارت الأمور إلى وضعها الحالى . لقد ذهب چون معى بناء على رغبة مستر لورنس ، ولقد تفانى فى خدمة أبيك ، حتى لم نتمالك أنفسنا من محبته . وكان صريحاً أميناً فى شأن ميج ، وصارحنا بحبه لها ، وأخبرنا أنه سينتظر حتى يهيئ لنفسه بيتاً مريحاً قبل أن يتزوج منها . ولم يسألنا شيئاً سوى أن نصرح له بأن يحبها وبأن يعمل من أجلها ، وبأن يجعلها تحبه إذا أمكن . إنه فتى ممتاز فى الواقع ، فلم نقو على صده ، ولكن ميج ما زالت صغيرة السن ، ولا يصح أن تتزوج الآن .

قالت چو :

ـ طبعاً لا توافقين على هذا الغباء ! كنت متأكدة من أنه يدبر المكائد ، وقد أحسست بذلك طوال الوقت ، ولكنى ما تصورت أن تصل النتائج إلى هذا الحد ، ليتنى أستطيع نفسى أن أتزوج ميج ، لأحفظها مصونة فى الأسرة .

وبعثت هذه الأمنية الابتسام إلى شفتى مسز مارش ، ولكنها قالت فى جد :

ـ لقد وضعت ثقتى فيك يا چو ، وأطلعتك على سر أريد أن

لا تعرف به ميج فى الوقت الحاضر ، وعندما يعود چون ويجتمع بميج هنا ، يمكننى أن أحكم على شعورها نحوه .

قالت الفتاة :

ــ سوف تقرأ عواطفه فى عيونه التى كثيراً ما تتحدث عن جمالها ، فينتهى أمرها بحبه . إن لها قلباً رقيقاً لا يلبث أن يذوب تحت وطأة نظراته العاطفية . إنها تقرأ الخطابات التى يرسلها أكثر مما تقرأ خطاباتك أنت ، فإذا سألتها لماذا تفعل ذلك ، نهرتنى ، كما أنها تحب العيون العسلية ، وترى أن چون وسيم الشكل ، وسوف تغرق فى حبه ، وسلام على أيام الضحك والهدوء والسرور . إنى أرى المستقبل أمامى واضحاً ، فسوف يروحان ويجيئان ويملآن البيت بالغرام ، وسيشغل حبه قلبها ، فلا يبقى لى متسع فيه ، ولن يعجز بروك عن تدبير المال بأية طريقة ممكنة ، ثم يأخذها منا ، فتترك فراغاً فى الأسرة . إن قلبى يتحطم لفراقها ، والدنيا من بعدها تغدو قبيحة .. يا إلهى ! لماذا لم تخلقنا جميعاً صبياناً ، حتى لا نقاسى مثل هذا المصير ؟ !

وأسندت چو ذقنها إلى ركبتها فى حزن وغضب ، وتنهدت مسز مارش ، فنظرت چو إليها وقد علا وجهها الارتياح ، وقالت :

ــ يسعدنى أن أراك غير مسرورة بهذا الموضوع يا أماه ، فهيا نرسله لحال سبيله دون أن تعرف ميج ، وبذلك تعود حياتنا إلى سعادتها كما كانت دائماً .

قالت :

ـ لقد أخطأت بتنهدى يا چو ، فالزواج أمر طبعى ، وستذهب كل منكن إلى بيتها الخاص عندما يحين الوقت المناسب . ولكنى أحب أن أحتفظ ببناتى أطول وقت ممكن ، ويؤسفنى أن يجىء دور ميج بهذه السرعة ، فهى فى السابعة عشرة ، وما زال أمام چون بضع سنوات حتى يتمكن من تهيئة بيت الزوجية لها . ولقد اتفقت مع أبيك أن لا نسمح بارتباط أو خطبة قبل أن تتم العشرين . فإذا تبادلا الحب كان الانتظار ممكناً ، وكان فيه محك لحبهما . إنها فتاة حساسة ولا يقلقنى أن تعامله بالعطف ، وأدعو الله أن يمهد لها سبيل السعادة لأنها جميلة طيبة القلب .

فقالت چو ، وقد لاحظت تعثر الكلمات الأخيرة فى فم أمها :

ـ ألا ترين من مصلحتها أن تتزوج رجلا غنياً ؟

قالت :

ـ إن المال شىء جميل نافع ، وأدعو الله أن لا يعوزكن إليه ، كما أضرع إليه أن لا تخدعن بكثرته . وكل ما أرجوه أن أطمئن إلى أن چون قد أصبح ذا مكانة مالية مستقرة ، تأتيه بما يكفل له وليج الراحة ، وتبعد عنه شبح الديون والفاقة . لست أطمع لبناتى فى ثروة ضخمة أو جاه عريض ، ولكن إذا جاء المال والجاه مع الحب والفضيلة ، فمرحبا بحسن طالعكن . إنى أعلم بالتجربة كيف تعمر السعادة بيوتاً عادية لا تملك سوى قوت يومها ، فبعض الحرمان يكسب مباهج الحياة الصغيرة أهمية ،

ويزيد وقعها جمالا فى النفس . إنى راضية أن تبدأ ميج حياتها فى تواضع ، وإن لم أكن مخطئة فستكون غنية بحبه العظيم ، وقلبه الكريم ، ورجولته الممتازة . أفليس هذا أغلى من المال وأعظم ؟

قالت چو بوجه أكثر إشراقاً من ذى قبل :

ــ إنى مقدرة كل ذلك يا أماه ، وأوافقك عليه ، ولكنى صدمت فى أمر ميج ، فقد كنت أتمنى أن تتزوج لورى ، حتى ترفل فى حلل السعادة طول حياتها . ألا توافقيننى على ذلك ؟

فقالت مسز مارش :

ــ إنه أصغر منها سناً ، كما تعلمين .

فقاطعتها چو قائلة :

ــ وهل من أهمية لذلك ؟ إنه طويل القامة ، راجح العقل ، قوى الشخصية ، ويمكنه إذا أراد أن يبدو أكبر سناً من حقيقته . ثم إنه غنى كريم طيب يحبنا جميعاً ، ويعطف علينا ، ويحزننى أن تذهب آمالى هباء .

قالت أمها :

ــ أخشى أن لورى لا يناسبها سناً ، ثم إن العواطف فى مثل هذه المرحلة المبكرة ، تكون كثيرة التقلب والتغير . فلا تضعى خططاً بعد ذلك يا چو ، واتركى الأمور تسير فى مجاريها ، فمن الأسلم أن لا نحشر أنوفنا فى مثل هذه الأمور ، ومن الخير أن لا نكون « عاطفيين سخفاء »

على حد تعبيرك ، وإلا أفسدنا جمال الصداقة بأيدينا .

قالت چو :

ــ حسناً ، لن أرسم خططاً بعد الآن ، ولكنى أمقت أن نترك الأمور تتعقد هكذا ، فى الوقت الذى قد يصلحها جذب منا وشد من هناك . كنت أتمنى أن يقف نمونا عند هذا الحد ، ولكنه أمل مستحيل ، فالبراعم تنمو ، فتخرج أزهاراً ، والقطيطات تصير قططاً ، مع بالغ الأسف .

وكانت ميج قد انتهت من خطابها فتسللت إلى الحجرة فى هدوء ، وما لبثت أن سألت قائلة :

ــ ماذا تقولين عن القطط والبراعم ؟

فنهضت چو عن مقعدها وقالت :

ــ هذه إحدى خطاباتى السخيفة ، فهيا بنا يا ميجى إلى فراشنا .

وقالت مسز مارش بعد أن قرأت الرسالة التى كتبتها ميج لأبيها :

ــ جميلة ، وأسلوبها لطيف ، فأرجو أن تضيفى إليها تحياتى إلى چون .

فقالت ميج وهى تبتسم وتنظر إلى أمها بعيون ساذجة بريئة :

ــ أتنادينه چون ؟

قالت الأم ، وهى تتأمل وجهها فاحصة :

ــ نعم ، فقد غدا كولد لنا ، ونحن نكن له كل الحب .

أجابت ميج فى هدوء :

– إنى مسرورة بذلك ، فهو وحيد فى حياته . مساء الخير يا أماه ، إن فى وجودك معنا راحة لا توصف .

وقبلت الفتاة أمها ، وكانت قبلة الأم عامرة بالعطف والإخلاص ، فلما ذهبت ميج إلى غرفتها ، قالت الأم لنفسها فى مزيج من الرضا والأسف :

– إنها لا تحب چون الآن ، ولكنها ستتعلم أن تحبه سريعاً .

الفصل الواحد والعشرون

لورى يصنع الشر وحو تنشر السلام

طلع اليوم التالى وقد أثقل السر قلب چو ، وعلا وجهها تعبير من الغموض والاهتمام . ورأت ميج ما بأختها ، فلم تشأ أن تستفسر منها عن أسبابه ، عالمة بأن التظاهر بعدم الاهتمام خير وسيلة إلى معرفة ما تخفيه عنها . ولكن ، لدهشتها ، ظلت چو تكتم ما بنفسها ، كما راحت تحيطها برعاية مضاعفة ضايقت ميج فابتعدت متعالية وكرست وقتها لخدمة أمها . ولما كانت مسز مارش قد حلت محل چو فى تمريض بث ، راجية أن

تأخذ الفتاة نصيبها من الراحة والرياضة ، فقد وجدت چو أنها وحيدة منفردة ، لا ملجأ لها سوى صديقها لورى . وكانت تميل إلى صحبة الفتى وتجد فيها متعة عظيمة ، ولكنها كرهت أن تقابله فى هذه الآونة ، خشية أن يدفعها بإلحاحه إلى الاعتراف له بالسر الدفين .

وكانت محقة فى خوفها . فما إن شعر الفتى الماكر بأنها تخفى عنه أمراً ، حتى قرر أن يعرفه بكل وسيلة ، وبذا أحال حياتها جحيما . وكانت له أساليب فى إغرائها بالكلام ، فمرة يرجوها أن تكون صريحة معه ، فإذا لم تستجب للرجاء ، حاول أن يرشوها بالوعود ، أو يعمد إلى السخرية منها ليغيظها ، أو ينهرها بقسوة دون سبب . وقد جرب أيضاً أن يهمل الموضوع بعض الوقت ، ثم يفاجئها بالسؤال عسى أن يسبق لسانها عقلها ، فتجيبه بالحق دون حذر ؛ ولكن حيله وأساليبه باءت بالفشل ، فأراد أن يرضى كبرياءه الجريحة بقوله إن السر الذى تخفيه يتعلق بميج وبروك . . وكانت شكوكه فى الواقع تدور حول هذا الموضوع ، وكان يؤلمه أن يخفى رائده أمراً من أموره عنه .

وانشغلت أسرة مارش بالاستعداد لاستقبال عائلها المريض ، فبدا كأن ميج نسيت مشاغل چو وبواعث قلقها ، ثم لم تمض أيام معدودات حتى ظهر التغير واضحاً عليها ، فأصبحت تجفل لأى حديث يوجه إليها ، ويحمر وجهها لنظرات أختها ، وكسا الوجوم وجهها المشرق ، فكانت تجلس إلى تطريزها صامتة شاردة البال ، وكانت

ضيقة الصدر بكل ما حولها ، إذا سألتها أمها عن حالها ، أنكرت أن أمراً يشغلها ، وإذا أشارت چو إلى وجومها ، نهرتها غاضبة متضايقة .

قالت چو لأمها ، وقد أزمعت أن تقوم بأى عمل إيجابى عنيف لإنقاذ أختها :

— إنها تسير فى طريق الحب مسرعة ، ومعظم أعراض الغرام قد ظهرت عليها : فهى نافدة الصبر غاضبة ، لا تأكل ، ولا تنام ، وتفضل أن تنزوى فى الأركان الهادئة طوال اليوم . ولقد ضبطتها تغنى أغنية « الغدير ذى الحرير الفضىّ » ، كما أنها قالت « چون » مرة عند الحديث عن بروك ، ثم ما لبثت أن احمر وجهها كزهرة الخشخاش البرى ، فماذا نصنع بالله لإنقاذها ؟

أجابت أمها :

— لا شىء سوى الانتظار ، ومن الخير أن ندعها وشأنها ، قانعات بالعطف عليها ، حتى يصل أبوك ويسوى الأمور بنفسه .

وفى اليوم التالى دخلت چو ومعها محتويات صندوق البريد ، وقالت لميج :

— هاك رسالة لك . والغريب أن مظروفها مقفل ، مع أن تيدى لا يقفل رسائله مطلقاً .

وبينما چو ووالدتها فى شغل عن ميج بأمورهما ، ند عن الفتاة صوت عجيب ، لفت أنظارهما إليها ، فإذا بها تقرأ الرسالة خائفة ، وأسرعت

الاثنتان إليها ، الأم تسألها عن فزعها ، وچو تحاول أن تأخذ الرسالة التى تسببت فيه ، قالت الأم :

ـ ماذا بك يا بنيتى ؟

وأخفت ميج وجهها بين يديها وهى تبكى وتقول :

ـ لا بد أن هناك خطأ ما ، لا يمكن أن يبعث إلىّ بمثل هذه الرسالة. أنت التى فعلت ذلك يا چو ، فكيف تجرئين ؟ !

وصاحت چو فى وجل :

ـ أنا ؟ ماذا فعلت ؟ وماذا تقصدين بكلامك هذا ؟

وأخرجت ميج من جيبها رسالة مكورة ألقتها إلى چو ، وقالت تعاتبها فى غضب :

ـ أنت التى كتبت هذه الرسالة بمعونة صديقك اللئيم لورى ، فكيف سول لكما الشر أن تفعلا ذلك ؟ إنها خسة وقسوة منكما أنتما الاثنين .

ولم تسمع چو قولها ، لأنها كانت فى شغل بقراءة الرسالة التى كانت مكتوبة بخط غريب ، وقد جاء فيها :

« مارجريت يا أعز الناس

« لم يعد فى مقدورى أن أكتم عواطفى بعد الآن ، وأود أن أعرف مصيرى قبل أن أعود . إنى لا أجرؤ بعد على مفاتحة والديك ، ولكنى أظن أنهما سيوافقان إذا علما بأن كلا منا يحب الآخر . إن مستر لورنس

سوف يساعدنى فى الحصول على مركز طيب ، وعند ذلك يا فتاتى الجميلة ، سوف نكون سعداء إلى الأبد . أتوسل إليك أن لا تقولى شيئاً للأسرة فى الوقت الحاضر ، كما أتوسل إليك أن ترسلى كلمة واحدة مع لورى تبعث الأمل فى قلبى .

من محبك

چون »

صاحت چو :

ـ يا للوغد الصغير ! لقد أراد أن ينتقم منى بهذه الطريقة لكتمانى السر عنه ، سوف أقتله تأنيباً ، وآتى به ليقدم إليك اعتذاراته .

وكانت تلتهب غضباً ، وكلها عزم على تنفيذ وعيدها فوراً ، ولكن أمها منعتها ، وقالت لها بلهجة صارمة :

ـ انتظرى يا چو ، لا تذهبى قبل أن تبرئى نفسك من تهمة الاشتراك فى تحرير هذه الرسالة ، فكثيراً ما قمت بمثل هذه الألاعيب ، وأخشى أن يكون لك يد فيما حدث .

قالت چو فى لهجة حارة تدعو إلى التصديق :

ـ أقسم لك يا أماه أن لا يد لى فى ذلك ، ولم أر هذه الرسالة قبل الآن ، ولا أعرف شيئاً عنها . وثقى أننى لو أردت القيام بشىء من هذا القبيل ما كتبت هذه الرسالة السخيفة ، لأنى أعرف أن مستر بروك لا يكتب شيئاً مما جاء فيها :

فقالت ميج فى تباطؤ وهى تقارن الرسالة برسالة أخرى :

ـ إن الخط فيهما متماثل .

فصاحت مسز مارش بسرعة قائلة :

ـ وهل رددت على الرسالة الأولى يا ميج ؟

فغطت ميج وجهها بيديها خجلا ، وقالت :

ـ نعم رددت عليها يا أماه .

فصاحت چو وهى تتجه مرة ثانية نحو الباب :

ـ هذه هى البلوى الكبرى ! سآتى بهذا الفتى الشرير ليشرح لنا الأمر ، فنعلمه الأدب . لن يستريح لى بال حتى أقبض عليه .

فقالت مسز مارش فى لهجة آمرة ، وهى تمسك بيد چو لتمنعها من الخروج :

ـ صه ! اتركى الأمر لى ، فقد تعقد الموقف أكثر مما كنت أتوقع . قصى على يا مارجريت كل ما حدث .

قالت ميج دون أن ترفع رأسها :

ـ وصلنى الخطاب الأول منه ، وقد جاءنى به لورى ، ولم يكن يبدو عليه أنه يعلم شيئاً مما فيه . . وتملكتنى الحيرة بادئ ذى بدء ، وكنت أنتوى أن أخبرك بكل شىء ، ولكنى عدت فتذكرت أنك تعتزين بصداقة مستر بروك ، وقد تغضبين عليه إذا عرفت برسالته ، فظننت أن الاحتفاظ بالسر أياماً لا يضير أحداً . وبينما كنت أجمع شتات

ذهنى لأرد على الرسالة ، شعرت كما تشعر الفتيات فى الكتب والقصص . اصفحى عنى يا أماه ، فقد نلت جزاء حماقتى . لن أستطيع بعد اليوم أن أنظر فى وجهه .

فسألتها مسز مارش :

ــ وماذا قلت له فى رسالتك ؟

قالت :

ــ لم أقل سوى أنى ما زلت أصغر سناً من أن أتخذ قراراً فى هذا الأمر ، وأنه يسوءنى أن أكتم عن والدتى سرًّا من أسرارى ، ونصحته بأن يصارح أبى بكل شىء . ثم شكرته على عطفه ، ووعدت بأن أكون أبد الدهر صديقة لا أكثر ولا أقل .

وابتسمت مسز مارش كأن جواب ابنتها قد سرها ، وصفقت چو بكفيها معجبة راضية ، وقالت :

ــ يا لك من جريئة ! وماذا قال لك ردًّا على هذا يا ميج ؟

قالت :

ــ كانت رسالته الثانية مختلفة تماماً ، فقد أكد فيها أنه لم يرسل أى خطاب غرامى ، وأنه يأسف أن تتخذ چو من اسمينا موضوعاً لتفكهها وسخريتها . كان ردًّا مليئاً بالعطف ، ولكن تصورى فظاعة موقفى ومبلغ إحراجى .

واستندت ميج إلى والدتها ، وهى فى غاية اليأس والحزن ، وراحت

چو تذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، وهى تصب اللعنات على لورى . وتوقفت فجأة ثم أمسكت بالخطابين تفحصهما بدقة ، وقالت بثقة :

ـ لا أصدق أن بروك علم بهاتين الرسالتين أو رآهما . لقد كتبهما تيدى بنفسه ، وتركك تظنين السوء بى ، لأنى رفضت أن أطلعه على سرى .

قالت ميج تحذر أختها :

ـ لا تكتمى عن أمنا سراً يا چو ، وكونى صريحة معها كما فعلت أنا الآن .

قالت چو :

ـ لك الله يا طفلتى ، إنها والدتى التى أخبرتنى بالسر .

قالت مسز مارش :

ـ هذا يكفى يا چو ، أحضرى لى لورى ، سوف أفحص الأمر حتى أصل إلى قرارته ، وأضع حداً لهذه المهازل .

وعندما انصرفت چو جرياً ، جلست مسز مارش إلى ميج تحدثها بحقيقة شعور مستر بروك نحوها ، وأخيراً سألتها فى رفق :

ـ والآن يا عزيزتى صارحينى بحقيقة شعورك نحوه ، أتحبينه إلى الدرجة التى تجعلك تنتظرينه حتى يهيئ لك منزلا صالحاً ؟ أم أنك تفضلين البقاء حرة فى الوقت الحاضر ؟

قالت ميج فى ذلة واضطراب :

ـ لقد أصابنى الخوف والقلق إلى درجة أفضل معها أن لا أحشر

نفسى فى أمور الحب لمدة طويلة ، وربما إلى الأبد . فإذا كان چون لا يعلم بهذه السخافات التى حدثت اليوم ، فمن الخير أن لا تخبريه بها ، وشددى على چو ولورى بأن يمسكا لسانيهما . . أيرضيك أن أخدع ويساء إلىّ وأصبح أضحوكة للناس ؟ يا للعار !

ورأت مسز مارش كيف أثارت المزحة الشريرة غضب ميج ذات الطبع الهادئ ، فجعلت تسرى عنها ، وتعدها بكتمان الأمر كتماناً تاماً . وما إن سمعت ميج وقع أقدام لورى فى الردهة ، حتى انصرفت عن الغرفة مسرعة ، وهكذا تلقت مسز مارش المذنب وانفردت به وحدها . ولم تكن چو قد أخبرته بشىء ، خشية أن يرفض الحضور لمقابلة أمها ، ولكن الفتى فهم الحقيقة بمجرد أن رأى وجه الأم واستشف حرج الموقف فوقف يثنى حافة قبعته بيديه فى حركة عصبية ، وقد علا وجهه سيماء المذنب العارف بذنبه .

وفى خارج الغرفة جعلت چو تذرع الردهة جيئة وذهاباً أمام الباب ، كالديدبان الحارس ، حتى تمنع المتهم من الفرار إذا أراد ، وكانت الأصوات تصل إليها من الداخل تارة عالية ، وأخرى منخفضة لمدة نصف ساعة ، ولكنها لم تدرك على وجه التحقيق ما دار خلال تلك الفترة بين الفتى وأمها . فلما نادتها أمها ، وجدت لورى يقف إلى جانبها ، وعلى وجهه سيماء الأسف الشديد ، حتى بلغ بها العطف عليه أن صفحت عنه ، ولكنها لم تعلن صفحها حتى لا تمحو أثر تأنيب أمها له . وتقبلت

ميج اعتذاره عما بدر منه ، وارتاحت كثيراً عندما أكد لها أن بروك لا يعرف شيئاً على الإطلاق مما جرى ، وقال أخيراً :

ـ لن أقول له شيئاً حتى يوم الممات ، وأنا على استعداد أن أفعل ما تريدين لتتأكدى من عظيم أسفى على ما بدر منى ، فهلا صفحت عنى يا ميج ؟

قالت فى لهجة عتاب تخفى بها اضطراب نفسها :

ـ سأحاول أن أصفح عنك ، ولكنك جافيت دواعى الرجولة بما فعلت ، ولم أكن أتصور مطلقاً أن يصل بك المكر والشر إلى هذا الحد يا لورى .

فضم الفتى يديه فى رجاء ، ونظر إليها بمسكنة واستعطاف ، ثم قال :

ـ لقد ارتكبت خطأ بالغاً ، أستحق من أجله أن تخاصمينى شهراً على الأقل ، ولكن ألا تسامحيننى بعد ذلك يا ميج ؟

وكان يتكلم بلهجة كلها إخلاص وصدق ، جعلت من المتعذر عليها أن تقطب وجهها رغم سلوكه الفاضح ، فصفحت عنه ، ولان وجه مسز مارش بعد جمود ، وابتسمت عندما سمعته يتضرع إلى الله أن يحوله إلى حشرة تطؤها قدما ميج ، جزاء وفاقاً لما فعل .

وكانت چو تقف بعيداً وهى تحاول أن تقسى قلبها عليه ، ولكنها لم تفلح فى ذلك ، فاكتفت بأن تتظاهر بعدم المبالاة به . وتطلع إليها

لورى مرة أو مرتين ، فلما لم ير على وجهها أمارات اللين والعطف ، أدار ظهره لها حتى استرضى الأخريين ، ثم انحنى لها انحناءة كبيرة ، وخرج من الحجرة دون كلمة واحدة .

وعندما غاب الفتى عن ناظرها ، أسفت لمبالغتها فى القسوة عليه ، فلما صعدت أمها وميج إلى الدور العلوى ، أحست بالوحدة والوحشة ، وتاقت نفسها إلى صحبة صديقها تيدى . وحاولت أن تقاوم رغبتها فى مصالحته ، ولكن عطفها غلبها على أمرها ، فتأبطت كتاباً كى تعيده للفتى ، وسارت إلى البيت الكبير . وهناك رأت خادماً تهبط السلم فسألتها :

— هل مستر لورنس موجود ؟

قالت الخادم :

— نعم يا آنسة ، ولكنى لا أعتقد أنه يرغب فى رؤية أحد .

سألتها :

— ولم لا ؟ أهو مريض ؟

قالت :

— لا يا آنسة . ولكن حدثت مشادة بينه وبين حفيده مستر لورى بسبب بعض تصرفات أغضبت السيد العجوز ، ولذا لن أجرؤ على دخول غرفته الآن .

سألتها :

– وأين مستر لورى ؟

قالت :

– فى حجرته ، وقد أغلق دونه بابها ، ولم يشأ أن يجيب على طرقاتى المتتالية ، ولست أدرى ما العمل ، فالطعام على المائدة ، وكلاهما لا يريد أن يأكل .

قالت :

– سوف أذهب لأتبين الخبر ، فلست أخاف واحداً منهما .

وصعدت چو ، وطرقت باب حجرة لورى فى رقة ، فأجاب الفتى بصوت عامر بالوعيد والتهديد ، يقول :

– كفى عن الطرق ، وإلا خرجت إليك ، وأنزلت بك ما تكرهين !

ولكن چو طرقت مرة أخرى ، فانفرج الباب فى شدة ، وعندئذ قفزت چو إلى داخل الغرفة قبل أن يستفيق الفتى من دهشته فيمنعها من الدخول . وبنظرة واحدة أدركت مدى حزنه وغضبه ، فتظاهرت بالخوف والانكماش ، وقالت وهى تركع أمامه بحركة تمثيلية :

– سامحنى يا لورى ، لقد جئت لمصالحتك ، ولن أعود حتى تعفو عنى .

قال فى سماحة الفتى النبيل :

– لقد صفحت وعفوت ، فانهضى من ركعتك وكفاك حماقة .

قالت :

ـ شكراً ، ولكن هل لى أن أسألك عما جرى ؟ لست أراك مرتاح النفس .

فزمجر لورى فى غيظ ، وقال :

ـ لقد نلت من التأنيب أكثر مما أحتمل .

قالت :

ـ ومن أنّبك ؟

قال :

ـ جدى ! ولو كان شخصاً آخر ما . . .

وقطع الفتى جملته بحركة عنيفة من ساعده .

فقالت تهدئه :

ـ وماذا فى ذلك ؟ كم أنبتك ولم تغضب منى ؟

قال :

ـ هراء ! أنت فتاة وتأنيبك يسلينى ، ولكنى لن أسمح بذلك لأى رجل كان .

قالت :

ـ لن يجرؤ أحد على تأنيبك وأنت فى مثل هذه الثورة العاتية فاطمئن ولكن أخبرنى بالله عليك ، لماذا غضب عليك كل هذا الغضب ؟

قال :

ـ لأنى رفضت أن أخبره لماذا أرسلت أمك لاستدعائى ، كنت قد

وعدتها بالكتمان فلم أشأ أن أنقض عهدى .

قالت :

ــ ألم يكن فى مقدورك أن تسترضيه بشكل ما ؟

قال :

ــ لا ، فقد أصر عل معرفة الحق كل الحق ولا شىء غير الحق . ولو كان بوسعى أن أعترف له بالدور السافل الذى لعبته ، دون ذكر اسم ميج ، ما ترددت ، ولكنى لم أستطع فسكتُّ وتحملت تعنيفه حتى أمسك ببنيقتى ، وعندئذ ثارت براكين غضبى ، فهربت منه قبل أن أفقد سيطرتى على نفسى .

قالت :

ــ هذا أمر محزن للغاية ، ويقينى أن جدك أسف على ما فعل ، فهيا بنا نهبط إليه ، أنت تسأله الصفح وأنا معك أعاونك .

قال :

ــ لن أذهب ولو شنقتنى ! ولن أقبل أن يؤنبنى الناس كلهم من أجل مزحة بريئة ، لقد اعترفت بخطأى لميج واعتذرت لها ، وفى هذا الكفاية.

قالت :

ولكنه لا يعرف بذلك .

قال :

ــ كان من الواجب أن يثق بكلامى ولا يعاملنى كطفل صغير .

وعلى كل حال يا چو ، لقد آن الأوان أن يعرف بأنى كبرت ولست فى حاجة إلى من يعنى بأمورى ، ولن يرضينى أن أتعلق بأذياله لأعيش .

فتنهدت چو وقالت :

ــ خل عنك هذه الأقوال اللاذعة ، وخبرنى كيف تنوى أن تنهى الأمر بينكما ؟

قال :

ــ عليه أن يعتذر لى ، لأنه لم يثق بكلامى ، ولم يصدق أن لدىّ عذراً وجيهاً يمنعنى من الإفضاء إليه بما حدث .

قالت :

ــ رحماك يا إلهى ! لن يعتذر لك .

قال :

ــ لن أخرج من غرفتى إذا لم يعتذر .

قالت :

ــ كن عاقلا يا تيدى ، ولا تعقد الأمور هكذا ، فأنت لا تستطيع أن تبقى فى غرفتك إلى الأبد ، وفى مقدورى أن أفسر له ما حدث ، وأصلح الموقف .

قال :

ــ لن أبقى هنا طويلا على أى حال ، ففى نيتى أن أنسل خارجاً من البيت ، ثم أرحل إلى جهة ما ، وسيأتينى جدى عند ما يفتقدنى .

قالت :

ـ هذا جائز ، ولكن لا يصح أن تقلقه بغيابك .

قال :

ـ كفى وعظاً ونصحاً ، ودعينى أسافر إلى بروك فى واشنجتون ، فالحياة فيها مرحة مسلية ، ومن حقى أن أرفه عن نفسى بعد هذه المتاعب الكثيرة .

قالت ، وقد أضعفت صور العاصمة الخلابة قدرتها على نصحه :

ـ يا للمتعة ! ليتنى أستطيع أن أرحل إليها معك .

قال :

ـ تعالى معى إذاً ، وسوف يسر أبوك بحضورك ، كما يسر بروك بحضورى . ستكون فرصة عظيمة ، فهيا بنا نسافر يا چو ، وأرى أن نترك لهم خطاباً مطمئناً ، ثم نرحل على التو. إن معى من المال ما يكفينا ، ولن يضر بك السفر ، بل قد تستفيدين فائدة عظمى إذا ذهبت إلى أبيك .

وراقتها الفكرة رغم ما فيها من جموح ، ومضت لحظة خال الفتى فيها أن چو على وشك أن تقبل اقتراحه . وكانت تعبة مرهقة تتوق إلى تغيير أسلوب حياتها الرتيب ، وأغرتها أكثر وأكثر فكرة السفر إلى أبيها ، ومتعة التفرج على المستشفيات والمعسكرات . ولمعت عيناها وهما تنظران واجمتين خلال النافذة ، ولكن نظراتها وقعت على بيتهم السعيد العتيق ، فارتد إليها عقلها ، وهزت الفتاة رأسها فى حزن ، وقالت بإصرار :

– لو كنت صبيًّا ، ما ترددت فى الهرب معك إلى حيث نسعد بأوقاتنا ، ولكنى مع الأسف فتاة تعسة ، ومن واجبى أن أراعىَ الآداب والتقاليد ، وأقنع بالبقاء فى البيت . لا تُغْرِنى يا تيدى ، فإن الفكرة كلها هوس وجنون .

قال لورى ، وقد تملكته الرغبة فى الخروج على قواعد العرف المألوف :

– وهذا ما يجعلها شائقة ممتعة ! !

صاحت چو ، وهى تغطى أذنيها كيلا تسمع كلامه :

– أمسك لسانك ، فإن مكانى الوحيد فى البيت ، ويجب أن أسلم بذلك . لقد جئت أنصحك ، فلا يجوز أن أقتدى بك .

قال يحاول إقناعها :

– قد تثبط ميج عزيمتى إذا عرضت عليها خطتى ، ولكنك تمتازين عنها بالجرأة والشجاعة .

قالت :

– اسكت أيها الشرير ! اخل إلى نفسك وحاسبها على خطاياها ، وإياك أن تغرينى بمضاعفة ذنوبى وأخطائى . ماذا تقول إذا جعلت جدك يعتذر لك عما بدر منه ؟ أيكفيك هذا لتعدل عن السفر إلى واشنجتون ؟

أجاب لورى ، وهو يتمنى أن توفق چو فى هذه المهمة كى يرضى كبرياءه الجريحة :

ـ نعم ، ولكنك لن تفلحى .

قالت الفتاة فى نفسها :

ـ إذا كنت قد نجحت فى إقناع الحفيد العنيد ، فلم لا أنجح فى إقناع الجد العجوز ؟

وانصرفت چو من الغرفة ، وقد تركت لورى خلفها ينعم النظر فى خريطة أمامه ، ورأسه بين يديه .

وطرقت باب حجرة مستر لورنس ، فأجابها يقول بصوت خشن غاضب :

ـ ادخل .

قالت وهى تدخل الحجرة بجرأة :

ـ جئت يا سيدى أعيد الكتاب .

فسألها العجوز وهو يحاول أن يخفى غضبه وحزنه :

ـ أتريدين كتاباً آخر ؟

قالت وهى تأمل أن تسترضيه إذا طلبت كتاباً لمؤلف يعجبه :

ـ نعم من فضلك ، فقد أعجبنى الجزء الأول الذى نصحتنى به ، ويسرنى أن أقرأ الجزء الثانى إذا سمحت .

وانفرجت أساريره قليلا ، وناولها السلم الذى تستطيع أن تصل به إلى الأرفف العليا ، فصعدته غير متوانية ، وهى تتظاهر بأنها تبحث عن الكتاب الذى تريده .

وكانت فى الحقيقة تبحث فى عقلها عن طريقة تبدأ بها الحديث الخطير الذى جاءت من أجله ، وبدا على مستر لورنس أنه أحس بشىء مما يجول فى خاطرها ، فبعد أن سار بضع خطوات سريعة فى الحجرة ، التفت إليها يقول فجأة :

— ماذا فعل الصبى ؟ إياك أن تدافعى عنه ، فأنا واثق بأنه أخطأ ، وقد رأيت فى وجهه سيماء المذنب ، ولكنى لم أفلح فى انتزاع كلمة منه ، ولما هددته ، تملص منى وهرب إلى غرفته ، وأقفل بابها دونى .

قالت چو ببطء :

— لقد أخطأ فعلا ، ولكننا صفحنا عنه ، وأخذنا منه وعداً أن لا يبوح بالأمر لأحد .

قال :

— هذا لا يجوز ، ولن أرضى أن يحتمى بقلوبكن الطيبة من العقاب الذى يستحقه . إذا كان قد أخطأ ، فعليه أن يعترف بخطئه ، ويطلب الصفح ، ويرضى بالعقاب . أخبرينى بالحقيقة يا چو ، ولا تتركينى أتخبط فى ظلام الجهل .

وارتعدت الفتاة لنظراته الرهيبة ، وشعرت برغبة شديدة فى الهرب من حضرته ، ولكن فكرة وجودها فى أعلى السلم بعيدة عنه ، منحتها الشجاعة على مواجهة الموقف . قالت :

— صدقنى يا سيدى إننى لا أستطيع الكلام ، فقد نهتنا أمى عن

الحديث فى الموضوع ، وأمرتنا أن لا نشير إليه من قريب أو من بعيد . أما لورى ، فقد اعترف بخطئه ، وطلب المغفرة ، ونال العقاب الكافى . لا تظن أننا نحميه بسكوتنا ، بل نحن نحمى شخصاً آخر ، وأخشى أن تتعقد الأمور إذا تدخلت يا سيدى ، فأرجوك أن لا تفعل ذلك . إننى مسئولة عن بعض ما حدث ، ولكن الأمور استقامت والحمد لله ، ومن الخير أن ننسى الماضى ، ونتكلم فى موضوع أفضل .

قال :

ــ انزلى عن هذا السلم ، وطمئنينى إلى أنه لم يفعل شراً ، وإذا كان قد تنكر لجميلكن بعد ما أصاب من عطفكن ومحبتكن ، فوالله لن أتردد عن جلده بيدى هذه .

ولم تنزعج چو لتهديده بالويل والثبور ، إذ كانت تعرف أنه لن يؤذى حفيده ، بالرغم من وعيده العنيف . وهبطت السلم طائعة ، ثم روت له القصة دون أن تشير إلى ميج أو تفسد الحقيقة . قال بارتياح ، وهو يحك شعره بيده :

ــ إذاً فقد رفض الفتى أن يتكلم محافظة على وعده ، إنه صبى عنيد ، صعب القياد ، ولكنى سأصفح عنه .

فقالت چو ، تحاول أن تستدر العطف على صديقها ، الذى لا يكاد يخرج من مأزق ، حتى يقع فى آخر :

ــ لست أقل عنه عناداً ، ولكن كلمة عطف واحدة تفعل بى

العجائب ، والقوة لا تقهرنى مثلما يقهرنى العطف واللين .

فقال بحدة :

ـ أتظنين أننى لا أعطف عليه ؟

قالت :

ـ معاذ الله أن أظن ذلك يا سيدى ، فأنت تبالغ فى العطف عليه أحياناً ، ولكنك سريع الغضب ضيق الصدر . أليس الأمر كما أقول يا سيدى ؟

وكانت هذه فرصتها الكبرى لإزالة الخلاف القائم بين الجد وحفيده ، فتكلمت بهدوء، وإن كانت فى الواقع ترتجف انفعالا . ولعظيم دهشتها وسرورها ، رأت العجوز يخلع عويناته ، ويلقى بها على المنضدة ، ويقول فى تعجب واضح :

ـ صدقت يا فتاة ، فأنا كما تقولين ! إنى أحب الصبى ، ولكنه يستنفد صبرى إلى درجة لا تطاق، ولست أدرى ما قد يحدث إذا استمر الحال هكذا .

قالت :

ـ ولكنى أعرف ما قد يحدث ، وأخشى أن ينتهى الأمر بأن يهرب منك .

وندمت على قولها أشد الندم ، وأسفت أن انزلق لسانها فى سعيها إلى إقناع العجوز بأن لورى لن يحتمل الشدة طويلا . كانت ترجو أن تغريه

بالتسامح ، فأفرطت فى الكلام ، وكانت النتيجة أن تغير وجه مستر لورنس فجأة ، وانهار على مقعده . ورأته ينظر بعينين ملؤهما القلق والاضطراب إلى صورة على المنضدة ، لرجل أنيق وسيم . كانت صورة ابنه والد لورى ، الذى هرب من أبيه فى شبابه وتزوج رغم إرادته . وخيل إلى چو أن العجوز يستعيد ذكريات الماضى نادماً ، فأسفت على حديثها ، وتمنت لو أنها أمسكت لسانها فى الوقت المناسب . قالت تطمئنه :

– لن يهرب منك إلا إذا زادت الأمور سوءاً وتعقيداً . إنها فكرة تجول بذهنه عند ما يضيق بالمذاكرة ، وكثيراً ما شاركته رغبته فى الهرب خصوصاً بعد أن قصصت شعرى ، وأصبحت شبيهة بالفتيان ، فإذا اختفينا يوما ما فعليك يا سيدى أن تبحث عن صبيين فى السفن المسافرة إلى الهند .

وكانت تتكلم ضاحكة ، فسرى عن مستر لورنس ، واعتبر حديثها مزاحاً من أوله إلى آخره . قال ، وهو يقرص خدها مداعباً :

– يا لك من فتاة ! كيف تجرئين على مثل هذا الحديث ؟ أين احترامك لى ؟ وأين اعتزازك بتربيتك ؟ إن الفتيان والفتيات محنة على السواء ولكنها محنة لا غنى عنها . هيا أحضرى الصبى يتناول الغداء معى ، وطمئنيه إلى أن الخلاف قد زال من بيننا ، وانصحيه بأن لا يظهر غضباً على جده ، إذ يؤلمنى أن أراه حزيناً أو متضايقاً .

قالت :

ـ لن يطاوعنى يا سيدى ، فقد ساءه أن تكذبه وتظن به الظنون ، وأعتقد أنه متألم كل الألم لتأنيبك له وشدتك معه .

وكانت تصطنع الحزن والأسى ، فلا تنجح فى إتقان تمثيلها ، مما حدا بمستر لورنس أن يضحك عالياً منها ، فاطمأنت وأدركت أن الغمة قد انقشعت عن نفسه .

قال ، وقد ندم على ما بدر منه نحو حفيده :

ـ إنى آسف لما حدث ، وكان يجب أن أشكره لأنه لم يعنفنى ! يا إلهى ! ماذا ينتظر منى هذا الفتى ؟

قالت :

ـ أرى أن ترسل إليه اعتذاراً مكتوباً ، فهو لن يرضى بالخروج من حجرته حتى يصله اعتذار منك ، وقد بلغ به الغضب أن هدد بالهرب إلى واشنجتون ، وكذلك هدد بأمور سخيفة أخرى . سيكشف له اعتذارك عن مدى طيشه وسخفه ، فيأتيك طائعاً مختاراً . إنها فكرة طيبة ، فجربها يا سيدى ، والاعتذار المكتوب أفضل من الشفوى ، وسأحمل له رسالتك ، وأتولى إصلاح الموقف .

فألقى عليها مستر لورنس نظرة حادة ، ثم وضع عويناته على أنفه وهو يقول فى بطء :

ـ يا لك من فتاة ماكرة ! ولكن لا مانع عندى من أن تسيرينى أنت أو بث . هاك الرسالة ، وخلصينا من هذه السخافات كلها .

وكانت الرسالة تحوى اعتذاراً صيغ فى أسلوب مهذب ، عامر بالتواضع والاسترضاء ، فطبعت چو قبلة على رأس العجوز ، وخرجت تجرى لغرفة لورى ، حيث وضعت الرسالة تحت عقب الباب ، ثم جعلت تنصحه من خلال ثقب المفتاح بأن يكون مطيعاً هادئاً مهذباً ، إلى غير ذلك من الصفات التى يصعب على الفتى أن يكتسبها . وانتظرت أن يفتح الباب ، فلما لم يفعل ، تركت الرسالة فى مكانها ، وعادت إلى السلم تهبط درجاته .

ولم تلبث أن رأت السيد الصغير يسبقها منزلقاً على حاجز السلم بسرعة

شديدة ، ثم يقف فى انتظارها أسفله ، ويقول بلهجة مليئة بالكياسة والأدب :

ـ يا لك من فتاة كريمة الأخلاق يا چو !

ثم استطرد وهو يضحك :

ـ ماذا فعل بك الرجل العجوز ؟ هل فجر فيك براكين غضبه ؟

قالت :

ـ بالعكس . كان لطيفاً إلى أبعد حد .

قال بلهجة الندم :

ـ لقد نلت ما أستحق ، فتخلى الناس كلهم عنى حتى أنت ، وشعرت أننى مخلوق غير مرغوب فيه .

قالت :

ـ خل عنك هذا التفكير العجيب ، واعمل على أن تبدأ صفحة جديدة ، يا ولدى العزيز تيدى .

قال فى حزن :

ـ إنى أقلب صفحات جديدة كل يوم ، ولا ألبث أن أسودها بأعمالى ، كما أسود صفحات كراساتى . حياتى كلها محاولات جديدة ، لم تنته واحدة منها بما أحب .

قالت چو ، وهى تدلف خارجة من باب البيت :

ـ اذهب ، وتناول غداءك ، ولن تلبث أن تتحسن معنوياتك ،

فمن طبع الرجال أن لايكفوا عن التذمر ما داموا جياعاً .

قال :

— هذا تشهير بنا نحن الرجال .

ثم ذهب إلى غرفة الطعام يشاطر جده غداءه . فقابله مستر لورنس باللين ، وتفانى فى إظهار عطفه عليه طول اليوم .

وعدت الأسرة أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، اللهم إلا ميج ، التى نسيت إساءة لورى ، ولكنها ظلت تفكر فى بروك . وبالرغم من أنها لم تسع إلى الاتصال به ، إلا أن أحلامها تركزت فيه ، وازداد قلبها تعلقاً به يوماً بعد يوم . وقد حدث ذات مرة أن كانت چو تبحث فى مكتب أختها عن طابع بريد ، فعثرت على ورقة خطت عليها ميج مرات ومرات اسم « مسز چون بروك » ، فتألمت لذلك كل الألم ، وألقت الورقة فى النار مغيظة ، وقد أدركت أن دعابة لورى عجلت قدوم اليوم المشئوم . . .

الفصل الثانى والعشرون

عودة السعادة

مرت أسابيع هادئة ملؤها السلام ، فكانت كضوء الشمس حين يغمر الكون بعد العاصفة ، فقد جاءت الرسائل من مستر مارش تنبئ بعزمه على القدوم فى أول العام الجديد ، كما عوفيت بث من مرضها وأصبح فى مقدورها أن تترك فراشها لترقد على الأريكة طوال اليوم ، تسلى نفسها بقططها العزيزة ، أو بحياكة ملابس جديدة لدميتها التى طال إهمالها لها . وكان ساقاها متخاذلتين ضعيفتين من أثر المرض الشديد ، فكانت چو

تحملها بين ذراعيها القويتين ، وتطوف بها أرجاء البيت لتروح عنها كلما أعوزها الترويح . كما جعلت ميج تطهى « للعزيزة » ما لذ من الأطعمة وطاب ، غير آبهة لما يصيب أصابعها ويديها الجميلتين من حروق أو اسوداد أما آمى فقد باركت شفاء أختها بطريقتها الخاصة ، فتنازلت لها عن كل ما تحبه من كنوزها الصغيرة .

وكان عيد الميلاد يدنو تدريجاً ، فيزداد جو الأسرة بدنوه غموضاً وحماسة ، وكانت الظروف تبشر فى هذه المرة بعيد طيب سعيد ، فاشترك كلهم فى الاستعداد ، وتقدمت چو مرة بعد مرة بمقترحات يستحيل تنفيذها حتى كان أخواتها ينفجرن ضاحكات لغرابتها . ولم يكن لورى أقل منها تعقيداً للأمور ، فرأى أن يكون الاحتفال باستعمال ألعاب نارية ، أو بإقامة أقواس النصر ، إلى غير ذلك من المقترحات المستحيلة . وبعد مناقشات ومناوشات طويلة ، استقر الرأى على استبعاد اقتراحات كل من چو ولورى ، لاستحالة تنفيذها ، فخرج الاثنان بوجهين حزينين ، ثم لم يلبثا أن انفجرا فى عاصفة قوية من الضحك .

وكانت الأيام السابقة للعيد متوسطة البرودة ، تبشر بجو بديع ، وقالت حنا : إن عظامها تتنبأ بعيد لا تنقصه السعادة أو الدفء ، وقد تحققت نبوءتها بفضل توافر الرغبة فى إنجاح الاحتفال بالعيد . وكان أول ما حدث من المفرحات أن أعلن مستر مارش قرب عودته ، ثم تقدمت صحة بث فى ذلك الصباح تقدماً ملحوظاً ، فارتدت المعطف الأحمر الذى

أهدتها إياه أمها ، وجلست بجوار النافذة تنتظر هدية چو ولورى . وكان الصديقان قد أحسنا إعداد هديتهما لبث ، وهيآ لها جواً يبعث على المرح والغبطة : ففى وسط حديقة الدار أقاما تمثالا من الثلج لفتاة صغيرة جميلة ، على جبينها إكليل من الغار ، وفى إحدى يديها سلة مليئة بالفاكهة والأزهار وفى اليد الأخرى مجموعة من المؤلفات الموسيقية ، وعلى كتفيها شال متعدد الألوان ، ومن فمها تتدلى ورقة وردية كتبت فيها أغنية تقول :

عروس الجليد هدية بث
حفظك الله أيتها الملكة بث
وذاد عنك الأحزان
ومتعك بالصحة والسعادة والسلام
هدية عيد الميلاد

هاك يا نحلتنا الكادحة فاكهة تأكلينها
وهاك أزهاراً تشمينها
وهاك موسيقى تعزفينها
وهاك شالا يغطى قدميك الصغيرتين

تقبلى منا هذا الشريط القرمزى
واربطى به ذيل قطتك الحسناء

وخذى مثلجات صنعتها بيجى
فكانت كجبل من الجليد وضع فى إناء

لقد جمع صانعاى حبهما
وأودعاه قلبى الثلجى
فاقبليه، واقبلينى هدية
من صديقك لورى ، ومن أختك چو .

وضحكت بث سعيدة بالهدية ، وتطوع لورى بنقل الهدايا من التمثال إلى البيت ، فى حين وقفت چو تقدم كلا منها بخطبة بليغة .

وتنهدت بث فى سرور بعد أن حملتها چو إلى الغرفة لتستريح وتتذوق قليلا من العنب اللذيذ الذى أهدته إياها عروس الجليد . قالت :

— إن قلبى مفعم بالسعادة ، ولا ينقص إلا وجود أبى معنا الآن ، ولولا غيابه لاكتمل هنائى ، ولم أعد فى حاجة إلى مزيد .

وقالت چو ، وهى تتحسس فى جيبها كتاباً طالما تاقت نفسها إليه :

— وأنا مثلك .

وقالت آمى ، وهى تنعم النظر فى صورة العذراء المحاطة بإطار جميل :

— وأنا أيضاً بلا شك .

وصاحت ميج ، وهى تسوى ثنايا ثوبها الحريرى الأول ، الذى أصر

مستر لورنس أن يهديها إياه :

ـ وأنا مثلكم بالطبع .

وقالت مسز مارش :

ـ وأنا مثلكم سعادة وهناء .

وجعلت تنقل بصرها من خطاب زوجها إلى وجه بث الباسم ، ويدها تتحسس القلادة التى جدلت من شعور بيضاء وذهبية وكستنائية وبنية ، وكان بناتها قد وضعنها حول جيدها .

أحياناً ما تكون الحياة كالقصة ، تسير فيها الأمور أحسن سير ، وهكذا كان يشعر آل مارش وقد اكتنفتهن السعادة وأظلهن الهناء ! ولم يكد يمضى من الوقت نصف ساعة ، حتى فتح لورى باب الردهة ، وأطل برأسه من فرجته فى هدوء ، وكان وجهه ينطق بالانفعال المكبوت والحماسة البالغة . قال بلهجة مرحة ماكرة جعلت الكل يقفز واقفاً :

ـ هاكم هدية أخرى لآل مارش بمناسبة عيد الميلاد .

وقبل أن يتم جملته ، أزيح عن الباب بطريقة ما ، وحل مكانه رجل طويل القامة يلتحف بالأغطية حتى عينيه ، ويستند إلى رجل طويل آخر أراد أن يقول شيئاً ، ولكنه لم يستطع ، إذ اندفع البنات وأمهن نحو القادم فى ثورة عاطفية كادت تفقدهن الرشد : فقد عاد مستر مارش ، ولم يكن أحد يتوقع هذا الحدث العظيم !

واختفى مستر مارش بين أحضان بناته ، واستبد الانفعال بجو حتى

كاد يغشى عليها ، وقبل مستر بروك ميج على سبيل الخطأ ، ثم يعتذر عن فعلته بألفاظ متقطعة متلعثمة . وسقطت آمى الأنيقة على الأرض بعد أن تعثرت قدمها فى المقعد ، فلم تحاول الوقوف ، بل لزمت مكانها من الأرض ، وقد طوقت ساقى أبيها بتأثر بالغ .

واستعادت مسز مارش هدوءها ، فرفعت يدها محذرة وقالت :

ـ حذار أن نزعج بث .

ولكن التحذير جاء متأخراً ، فقد انفتح الباب بشدة ، وظهرت من ورائه بث ، متدثرة بمعطفها الأحمر ، وقد بعث السرور فى ساقيها قوة جديدة ، فجرت إلى أحضان أبيها ترتمى فيها . وتوالت المواقف المؤثرة ، ولكننا لا نرى ما يدعونا إلى ذكرها ، ويكفى أن نقول : إن السعادة غمرت القلوب ، فغسلت مرارة الماضى ، ولم تبق إلا الرضا بروعة الحاضر وجماله .

وبينما كانت الضحكات تتعالى فى أرجاء الغرفة ، وقفت حنا وراء الباب ، ودموع التأثر تنساب من مقلتيها ، فتسقط على الديك الرومى الذى تحمله بين يديها . وتركت مسز مارش بناتها حتى نلن غايتهن من الترحيب بأبيهن ، ثم انثنت إلى مستر بروك تشكره على بالغ عنايته بزوجها ، وعندئذ نذكر الشاب واجبه فى توفير أسباب الهدوء لمريضه الناقه ، فاستأذن فى الانصراف ، وخرج مع لورى إلى البيت الآخر .

وجلس مستر مارش على مقعد كبير مريح يقص على بنانه كيف كان يتوق إلى مفاجأتهن بعودته ، وكيف حالفه الحظ ، فاعتدل الجو على

غير انتظار ، وأذن له الطبيب بالسفر . وكذلك حدثهن بخدمات بروك ، وتفانيه فى توفير أسباب الراحة له ، مما زاده إيماناً بكرم نفسه وعلو أخلاقه. وتمهل مستر مارش فى حديثه عن بروك ، ونظر نحو ميج ، التى تشاغلت بتقليب النار فى المدفأة ، كأنها غير مصغية لكلامه ، ثم نظر إلى زوجه بتساؤل أجابته عليه بإيماءة من رأسها ، ثم أسرعت بتغيير الموضوع ، فسألته إذا كان يريد أن يأكل شيئاً . وشاهدت چو هذه الحركات ، وفهمت المقصود منها ، فقطبت جبينها ، وانصرفت من الغرفة تحضر طعاماً ونبيذاً .

قالت فى نفسها ، وهى تصك الباب خلفها :

ـ إنى أكره الرجال الذين يستحقون التقدير ، خصوصاً إذا كانت عيونهم عسلية .

وجاءت وليمة العيد فريدة فى نوعها ، لم يرد لها مثيل فى حياة الأسرة : فقد كان الديك الرومى السمين تحفة أبدعت حنا فى حشوها وطهيها ، وكانت فطيرة العيد كبيرة الحجم متقنة الصنع ، شأنها فى ذلك شأن صحن الفالوذج الشهى ، الذى صالت فيه آمى وجالت ، وكأنها ذبابة هبطت على عسل .

قالت حنا ، عند ما انتهى العشاء بفضلها على ما يرام :

ـ لست أدرى كيف أمكننى إتقان الأكل مع مفاجآت اليوم وأحداثه وأحمد الله أنى لم أحمر الفطيرة بدل الديك ، ولم أحشُ الديك بدل الفطيرة بالزبيب والسكر .

وقد اشترك فى وليمة العشاء مستر لورنس وحفيده ، وكذلك اشترك مستر بروك ، الذى عاملته چو بتحفظ شديد دهش له لورى وتعجب . وكان على رأس المائدة كرسيان مريحان لبث وأبيها ، فجلسا عليهما يأكلان قطعة من الديك وبعض الفاكهة ، وسارت الوليمة سيراً حسناً ، فتبادل الجالسون الأنخاب ، ورووا القصص والفكاهات ، وأنشدوا الأغانى ، وبالاختصار كانت وليمة ناجحة إلى أقصى حد . وبعد العشاء ، اقترح مستر لورنس أن يخرج الفتيات فى عربته إلى النزهة ، ولكنهن أبين مفارقة والدهن ، فاستأذن الضيوف فى الانصراف مبكرين ، وما إن خيمت عتمة الغسق ، حتى التأم شمل الأسرة السعيدة من جديد حول نيران المدفأة .

وسار الحديث طويلا بينهم ، وفى فترة سكوت قصيرة ، قالت چو :

ــ فى مثل هذا الوقت من العام الماضى ، كنا نتوقع عيداً قابضاً .

فقالت ميج ، وهى تنظر إلى لهب النيران ، راضية بأسلوبها فى معاملة مستر بروك :

ــ لقد كان عاماً سعيداً فى مجموعه .

وقالت آمى ، وهى تفحص الخاتم فى أصبعها :

ــ أظن أنه كان عاماً شاقاً .

وهمست بث ، وهى تجلس على ركبة أبيها :

ــ إنى سعيدة بانقضائه ، فقد عدت إلينا يا أبى .

فقال مستر مارش ، وهو ينظر إلى بناته راضياً :

— كانت مرحلة شاقة فى طريق حياتكن ، يا حاجّاتى الصغيرات ، ولكنها انقضت بسلام ، وعن قريب تلقين أحمال الهموم عن ظهوركن ، إن شاء الله .

سألته چو :

— هل أخبرتك أمى كيف كانت حياتنا شاقة يا أبى ؟

قال :

— سمعت منها قليلا ، ولكن لى عينا ترى ، وقد لاحظت بنفسى أشياء كثيرة .

فصاحت ميج تقول :

— إذاً أخبرنا بما لاحظت !

قال ، وهو يمسك بيدها ، ويشير إلى أصابعها الخشنة ، وآثار الحروق المنتشرة فيها :

— هذه إحدى ملاحظاتى ، فإنى أذكر أن يدك كانت بيضاء ناعمة ولم يكن لك هم سوى العناية بجمالها ، ولكنى أفضل خشونتها الحاضرة على نعومتها السابقة ، ففيها أقرأ قصة انتصارك على خيلائك ، وأتلو صفحات جهادك فى أداء واجباتك . ثقى يا عزيزتى ميج بأنى أقدر فى النساء تضحيتهن من أجل المحافظة على كيان بيوتهن ، أكثر مما أقدر أيديهن البضة الفارغة ، ويسعدنى أن أشد على يدك الصغيرة المكافحة ، وآمل أن

لا يطلبها منى أحد فى القريب العاجل .

وكانت ضغطة أبيها على يدها ، وابتسامة الفخر التى ارتسمت على شفتيه ، أعظم مكافأة نالتها ميج جزاء الأيام العصيبة التى مرت بها .

قالت بث تهمس فى أذن أبيها :

— وما رأيك فى چو ؟ إنها تستحق كلمة طيبة ، فقد اجتهدت كثيراً وكانت كريمة معى إلى أبعد حد .

فضحك مستر مارش ، ونظر إلى الفتاة الطويلة ، التى تجلس أمامه وعلى وجهها الأسمر هدوء غير عادى ، ثم قال :

— بالرغم من شعرها المقصوص ، فإنى لا أرى فيها الفتى چو الذى تركته منذ عام ، بل أرى فتاة أنيقة الهندام ، لا تصفر ولا تتكلم باللغة العامية ، ولا ترقد على البساط كما اعتادت فيما مضى . إن وجهها نحيل باهت ، من أثر القلق والانتظار ، ولكنى أحب أن أتطلع إليه ، فقد أصبح أرق تعبيراً وأكثر هدوءاً . وهى لا تقفز الآن بل تسير فى هدوء ، وتعنى ببعض الناس عناية الأم الرؤوم ، وكل هذا يسعدنى ويسرنى . حقيقة أننى أفتقد فتاتى الشاردة الجامحة ، ولكنى استعضت عنها بامرأة قوية النفس ، رقيقة القلب ، محبة للخير ، تواقة إلى المعونة . ولست أدرى إذا كان قص شعرها قد أعاد عقلها إلى رأسها ، ولكنى أعرف أننى لم أجد فى واشنجتون كلها ما يستحق أن أدفع فى شرائه المبلغ الذى باعت به جدائلها .

واغرورقت عينا چو تأثراً ، واحمر وجهها انفعالا ، وهى تصغى إلى

مديح أبيها ، وتحس أنها جديرة ببعض ما قاله فى تقريظها .

قالت بث وهى تتعجل دورها :

ـ والآن ، ماذا لاحظت فى بث ؟

قال بمرح ، وهو يضم إلى صدره صغيرته التى كاد يفقدها :

ـ لم يبق من بث سوى قليل ، وأخاف أن أقول عنها كثيراً فلا يبقى شىء منها ، ولكنى مسرور على كل حال أنك تغلبت على حيائك وخجلك ، ويسعدنى أن أعود فأجدك سليمة ، وسوف تبقين دائماً سليمة بإذن الله .

وسكت لحظة ، ثم نظر إلى آمى التى تجلس عند قدميه ، وقال وهو يربت على رأسها :

ـ لقد لاحظت أن آمى تخدم الأسرة فى أثناء الطعام ، وتلبى طلبات أمها بعد الظهر ، وقد أعطت الليلة مكانها لميج ، وساعدتنا جميعاً بمرح وصبر وشجاعة . وقد لاحظت أيضاً أنها لا تتذمر ، ولا تطيل النظر فى المرآة ، كما أنها لم تذكر شيئاً عن الخاتم الذى تضعه حول أصبعها ، وأستنتج من ذلك أنها تعلمت أن تفكر فى غيرها أكثر مما تفكر فى نفسها ، وأنها تحاول أن تصوغ نفسها فى قالب جديد ، كما تفعل بتماثيلها الصلصالية وإنى سعيد بذلك وفخرى عظيم بفتاتى الحبيبة ، التى تزيد الحياة جمالا لنفسها ولمن حولها .

وبعد أن شكرت آمى أباها ، وأخبرته بقصة الخاتم الذى تلبسه ،

سألت چو أختها بث قائلة :

– فيم تفكرين يا بث ؟

قالت :

– قرأت اليوم فى كتاب النصائح ، أن الحجاج وصلوا بعد عناء إلى مروج السلام الخضراء ، حيث تزدهر الزنابق طول العام ، وكذلك قرأت أنهم استراحوا ، كما نستريح نحن الآن ، قبل أن يستأنفوا المسير إلى غايتهم الأخيرة .

ثم قالت ، وهى تنسل من أحضان أبيها ، وتسير إلى معزفها ببطء :

– حان وقت الغناء ، وأريد أن أسترد مكانتى من العزف ، وسأحاول أن أنشد أغنية « الراعى الصغير » ، الذى سمعه الحجاج يغنى بصوت رخيم وقد لحنت المقطوعة التى أعرف أن أبى يحبها .

وجلست إلى معزفها الصغير ، ولمست أصابعه برفق ، وارتفع صوتها الرخيم الذى كانت الأسرة تخشى أن يحرمهم الموت منه ، وجعلت تغنى وتقول :

« من يعش على الأرض لا يخشى السقوط
ومن يتنازل لا يخشى الغرور
ومن يتواضع دائماً
يكن الله له نعم الدليل .
أنا راض بما وهبنى الله

إن قليلا كان أو كثيرا
لأنى أنشد القناعة يا إلهى
وأنت يا إلهى حليف القنوع

إن الامتلاء حمل ثقيل
لمن إلى الحج يذهبون
فعسر هنا ، ويسر هناك
سنة الخير ، جيلا بعد جيل »

الفصل الثالث والعشرون

العمة مارش تحل المشكلة

جاء اليوم التالى والتف البنات وأمهن حول مستر مارش المريض الناقه يغدقن عليه من العناية والرفق ، ما جعلهن يهملن أعمالهن فى سبيل خدمته والتمتع بالنظر إليه ، والاستماع إلى أخباره ، فكن فى ذلك أشبهٍ بالنحل حين يلتف حول ملكته . كن فى غاية السعادة ، والأب يجلس على مقعد مريح جانب أريكة بث ، ومن حوله البنات الثلاث ، وبين حين وآخر تطل حنا برأسها من الباب « لتطمئن على الرجل العزيز » . ولكن كبار

الأسرة كانوا فى قلق مكبوت ، ينتابهم شعور بأن أمراً ينقصهم ، فلا يصرحون به ملتزمين الصمت : فقد كانت نظرات مستر مارش وزوجه تتبع ميج بقلق ولهفة ، واستبد الغضب بچو فجعلت تهز قبضتها مهددة منذرة لمظلة مستر بروك التى نسيها فى الردهة ، كل هذا وميج شاردة الذهن صامتة خجول ، تجفل إذا ما رن جرس الباب ، ويحمر وجهها إذا ما ذكر اسم چون على مسمع منها .

قالت آمى :

ــ لست أدرى ماذا جرى ، فكلنا فى قلق وحيرة ، مما لا يتفق مع عودة أبى إلينا سالماً .

وأبدت بث ، فى براءة ، دهشتها لتأخر آل لورنس عن زيارتهم فى هذه المناسبة الهامة .

ومر لورى بالبيت فى مساء ذلك اليوم ، فلما رأى ميج تطل من النافذة ، ركبه شيطان التمثيل فجأة ، فركع على إحدى ركبتيه فوق الجليد وهو تارة يشد شعره ، وتارة أخرى يرفع يديه فى توسل وضراعة ، كأنه يطلب الرحمة . وعند ما نهرته ميج وطلبت منه أن يتأدب أو ينصرف ، رفع يده إلى عينيه يجفف بمنديله دموعاً خيالية ، ثم سار يترنح فى يأس ، حتى وصل إلى منعطف الطريق .

وضحكت ميج وقالت لچو ، وهى تتظاهر بأنها نسيت ما فعل :

ــ ماذا يقصد هذا الغبى ؟

فقالت چو فى تهكم :

– إنه يريك ماذا سيفعل رجلك چون فى المستقبل . منظر مؤثر ! أليس كذلك ؟

فقالت ميج بهدوء كأن الكلام يلذ لها :

– لا يليق بك أن تقولى رجلى چون ، فهذا غير صحيح . لقد أخبرتك مراراً إنى لا أهتم به ، وقد اتفقنا جميعاً أن لا نتحدث فى هذا الموضوع . ورجائى أن لا تضايقينى يا چو ، حتى نظل دائماً فى صداقة ووئام .

قالت چو متألمة :

– لسنا نستطيع ذلك الآن ، فقد قيل ما قيل ، وفعلت مزحة لورى فعلها فيك . إن أمورك تبدلت ، وقد لاحظت أنا وأمى التغير الذى أصابك ولست أريد أن أضايقك ولذلك سأحتمل فجيعتى فيك احتمال الرجال . إن وقوع البلاء أهون من انتظاره ، وأنا بطبعى أكره الانتظار ، فإذا كان فى نيتك الموافقة فهيا عجلى بها .

قالت ميج وهى تنحنى فوق تطريزها وعلى شفتيها ابتسامة غامضة :

– لا يجوز أن أتكلم قبل أن يتقدم رسمياً ، ولن يفعل ذلك ما دام أبى يرى أنى ما زلت صغيرة .

قالت چو :

– بل يجب الاستعداد من الآن ، حتى لا يفاجئك بالكلام ، فيحمر وجهك وتبكين ، وبذلك تتركينه ينفذ رغباته ، بدل أن ترفضيه رفضاً حاسماً

قالت :

ـ لست غبية أو ضعيفة كما تعتقدين ، وقد رسمت خطة كيلا أوخذ على غرة ، ومن الخير أن نستعد للأمور حتى لا نفاجأ بها .

ولم تتمالك چو من أن تبتسم للهجة الجدية التى تكلمت بها ميج دون أن تدرى ، والتى صحبها احمرار وجهها الجميل ، وقالت فى لهجة أكثر احتراماً :

ـ هلا أخبرتنى بما استقر عليه رأيك ؟

قالت :

ـ لا مانع لدى مطلقاً ، فقد بلغت السابعة عشرة من عمرك ، وأصبحت بنضج تفكيرك أهلا لثقتى فيك ، وقد تفيدك التجربة التى أمر بها عند ما يحين دورك .

فقالت چو ، وقد أفزعها مجرد التفكير فى أن تمر بها تجربة أختها :

ـ لن أمر بما تمرين به ، ولست مجنونة أن أجرب هذه التجربة بنفسى ، إنما يلذ لى أن أراقب غيرى فى ظرف كهذا .

وسرحت ميج بنظرها إلى الطريق الضيق الذى طالما رأت العاشقين يسيرون فيه جنباً إلى جنب فى ليالى الصيف الدافئة ، وقالت كأنها تحدث نفسها :

ـ سيكون لك رأى آخر عند ما تجدين من يحبك وتحبينه .

قالت چو فى حدة ، وقد أغضبها خيال أختها الجميل :

ـ أليس فى نيتك أن تخبرينى بما استقر عليه رأيك ؟

قالت :

ـ سأقول له بمنتهى الهدوء والتصميم : أشكرك يا مستر بروك على كرمك العظيم ، ولكنى أتفق مع أبى فى أنى ما زلت أصغر سناً من أن أفكر فى خطبة أو زواج ، ولذلك أرجو أن تترك الكلام فى هذا الموضوع ، وأملى أن نظل أصدقاء كما كنا فيما مضى .

قالت :

ـ هذا كلام حازم قاطع ، ولكنك لن تقوليه ، وحتى إذا قلته ، فلن يرجع الرجل عن عزمه ، وسوف يتصرف تصرف المحبين الذين نقرأ عنهم فى القصص ، فتذعنين لطلبه خشية أن تجرحى شعوره .

قالت :

ـ لا لن أذعن ! سأعلنه بأننى مصممة على رأيى ، ثم أنصرف من الحجرة فى تعال وكبرياء .

وقامت ميج واقفة وهى تتكلم ، وكانت على وشك أن تجرب الانصراف فى تعال وكبرياء ، غير أنها سمعت وقع خطوات فى الردهة جعلتها تعود إلى مقعدها جرياً ، ثم تعكف على تطريزها بهمة ونشاط . وكتمت چو ضحكة لهذا التغيير المفاجىء ، وقامت إلى الباب ، تفتحه مستجيبة للطرقات الخفيفة عليه ، وقد كست وجهها جموداً لا يدل على ترحيب بالقادم . ووقف مستر بروك عند الباب ، ونظره يتنقل من وجه هذه إلى وجه تلك ، ثم قال بارتباك ملموس :

– لست أبتغي غير الاطمئنان إلى أنك تهتمين بي ولو قليلا

– مساء الخير ، لقد جئت لآخذ مظلتى ، وأزور والدك لأطمئن على حالته اليوم .

قالت چو فى ارتباك جعلها تخلط بين أبيها والمظلة :

– إنها فى خير حال ، وهو يجلس على المشجب ، وسوف أحضره لك ، ثم أخبرها بأنك هنا .

وانصرفت من الغرفة فوراً ، حتى تتهيأ الفرصة لميج ، فتكاشفه بما استقر عليه رأيها ، ولكن ميج شرعت بدورها فى الانسحاب ، وقالت له بخجل :

– يسر أمى أن تراك ، فتفضل بالجلوس حتى أستدعيها .

قال ، وفى لهجته ألم شديد ، ظنت ميج معه أنها قد عاملته بخشونة :

– لا تذهبى . أتخافين منى يا مارجريت ؟

واحمر وجهها حتى وصل الاحمرار إلى جذور الشعر فى جبينها ، لأنه ناداها باسمها مارجريت ، وهو ما لم يفعله من قبل ، وأدهشها أن يكون نداؤه طبيعياً لا كلفة فيه . ومدت يدها فى حركة مطمئنة ، وقالت بلهجة من تحرص على إبداء صداقتها فى غير تكلف أو اصطناع :

– كيف أخافك وقد كنت مثال العطف على أبى ؟ ليتنى أستطيع أن أفيك حقك من الشكر .

فأمسك بيدها الصغيرة بين يديه الكبيرتين ، ونظر إليها بعينيه العسليتين المليئتين بالحب ، مما جعل قلبها يضطرب بين جنبيها ، وكانت تريد الإفلات منه ، ولكنها كانت تريد أيضاً أن تبقى لتسمع ما يقول . سألها :

ـ أأخبرك كيف تشكرينني ؟

قالت وهى تحاول أن تسحب يدها ، وقد بدا الخوف عليها وهى لا تدرى :

ـ لا . أرجوك ! أفضل ألا تقول شيئاً .

قال مستر بروك فى رقة وحنان :

ـ لن أزعجك ، ولست أبتغى غير الاطمئنان إلى أنك تهتمين بى ولو قليلا يا ميج . إنى أحبك كل الحب يا عزيزتى .

وجاءت اللحظة الحاسمة كى تقول ما استقر عليه رأيها من قبل ، ولكنها لم تقل شيئاً ، فقد غابت عن ذهنها الكلمات التى سبق أن أعدتها بإحكام ، وكل ما فعلته أن رفعت رأسها ، وقالت :

ـ لست أدرى .

كان صوتها ناعما منخفضاً ، فانحنى چون عليها ليسمع ردها التافه ، ويبدو أنه اغتبط لجوابها ، إذ ابتسم راضياً ، وضغط على يدها البضة فى رشاقة ، وقال بلهجة مقنعة :

ـ هلا حاولت معرفة حقيقة شعورك ؟ إنى مشوق جداً إلى استطلاع رأيك ، فلن أتمكن من التفرغ إلى عملى قبل الاطمئنان إلى مكافأتى فى النهاية .

قالت متلعثمة ، وهى لا تدرى لماذا تضطرب هكذا رغم اغتباطها بما تسمع :

ـ إنى ما زلت صغيرة السن جداً .

قال :

ـ سوف أنتظر ، ولن يضيرنى الانتظار إذا حاولت أن تحبينى ، فهل ترين أنها مهمة عسيرة يا عزيزتى ؟

قالت :

ـ لن تكون مهمتى عسيرة لو أردت ، ولكن . .

فقاطعها چون وهو يمسك بيدها الأخرى ، بحيث لم تستطع أن تخفى وجهها من نظراته :

ـ إنى أحبك كثيراً يا ميج ، فأرجو أن توفقى فى الاستجابة لعاطفتى .

وكانت لهجته محكمة فى ضراعتها وتوسلها ، ولكن نظرة استرقتها إلى وجهه ، كشفت لها عن مبلغ سروره واغتباطه ، بل كشفت أيضاً ثقته الشديدة فى بلوغ غايته ، وتذكرت دروس آنى موفات فى الدلال ، وتملكتها أنانية الحب وقوته ، التى تظل كامنة فى نفوس الفتيات ، ثم تظهر فجأة فى الوقت المناسب . وأحست بشعور غريب ، وتحيرت فيما تفعل ، ثم أوحى إليها الدلال بالتمنع ، فسحبت يدها من بين يديه ، وقالت :

ـ لن أفعل ما تريد ، فهلا ذهبت الآن وتركتنى لشأنى ؟

وارتاع مستر بروك المسكين لقولها ، وقد أحس بأن القصور التى بناها فى الهواء تنهار على رأسه ، ولم يكن قد رأى ميج فى مثل هذه الحالة من قبل ، ولذلك أفزعه نفورها ، فسألها فى قلق وهو يتبعها إلى خارج الحجرة :

ـ أحقًّا تقولين ؟

قالت :

ـ نعم ! ولست أحب أن أشغل نفسى بمثل هذه الأمور ، وأبى يرى ذلك أيضاً . وما زال الوقت أمامى متسعاً ، فالأفضل أن أنتظر .

قال :

ـ قد تغيرين رأيك قريباً ، وسأنتظر صامتاً حتى أمنحك وقتاً كافياً للتفكير . لا تلعبى بعواطفى يا ميج ، فلست أظنك أهلا لذلك .

قالت ميج ، وقد لذ لها أن تعذب حبيبها ، وتختبر احتماله لسلطانها عليه :

ـ أفضل أن لا تفكر فىَّ على الإطلاق .

وشحب وجهه وأظلم حزناً ، وبدا فعلا كأنه بطل من أبطال القصص غير أنه لم يضرب جبينه بيده مثلهم ، كما لم يسر جيئة وذهاباً فى الحجرة ، إنما وقف ينظر إليها متألماً ، حتى أحست بقلبها يعطف عليه على الرغم منها ولو لم تحضر العمة مارش فى هذه اللحظة الهامة ، ما أمكن التكهن بنهاية الموقف .

وكانت العمة قد قابلت لورى وهى تتنزه ، وعلمت منه بعودة مستر مارش ، فلم تقو على مقاومة شوقها إلى رؤيته ، ولذلك توجهت إلى بيته فوراً . وكان أفراد الأسرة جميعهم فى نهاية الدار مشغولين بأمورهم ، فسارت فى البيت بهدوء تريد أن تفاجئهم بزيارتها . وكان دخولها بالفعل مفاجأة

للمتحدثين ، إذ جعلت ميج كما لو أن شبحاً ظهر لها ، واختفى بروك مسرعاً فى غرفة المكتب .

صاحت العجوز وهى تضرب الأرض بعصاها ، وتنقل بصرها من وجه الشاب الشاحب إلى وجه الفتاة المتورد :

— ارحمنى يا إلهى ، ما هذا كله ؟

فتلعثمت ميج ، وهى تتوقع أن تنهال عليها عمتها بالنصح والتعنيف ، وقالت :

— هذا صديق لأبى . لقد أدهشتنى رؤيتك كثيراً .

قالت العمة مارش وهى تجلس :

— دهشتك واضحة ، ولكن ماذا كان صديق والدك يقول لك ، حتى يحمر وجهك هكذا ؟ إنى أحس بالشر ، ولذلك يجب أن أعرف ما يجرى هنا .

قالت ميج ، وهى تتمنى لو أن مستر بروك كان خارج البيت آمناً :

— جاء مستر بروك يسترد مظلته ، وكنا نتبادل بعض الحديث .

صاحت العمة مارش تستوضح الأمر :

— بروك ؟ رائد الولد إياه ؟ لقد فهمت الآن . إنى أعرف كل شىء فقد أخطأت چو وفتحت رسالة من رسائل أبيك ، وقد أكرهتها أن تقول لى عما جاء بها . فهل قبلت خطبته يا ترى ؟

قالت ميج فى اضطراب :

ـ صه ! إنه فى الغرفة الأخرى وقد يسمع حديثك ! ألا أستدعى والدتى لتراك ؟

قالت العجوز فى اهتمام :

ـ لا ، ليس الآن إذ لدى ما أقوله لك حتى يستريح ضميرى . أخبرينى ، أتنوين حقيقة أن تتزوجى كوك هذا ؟ إذا كان الأمر كذلك فلن تنالى بنساً واحداً من ثروتى . تذكرى هذا وكونى فتاة عاقلة .

وكانت العمة مارش قديرة على إغضاب الناس واستثارة عنادهم إلى أقصى حد . ولو أنها طلبت إلى ميج أن تتزوج بروك ، ما ترددت الفتاة لحظة فى الرفض ، ولذلك أثار اعتراضها روح العناد فى قلب الفتاة ، وقررت لفورها أن تقبله . وقد ساعدها على معاندة عمتها ، ميلها الشديد للفتى ، فقالت وهى تهز رأسها فى تصميم قاطع :

ـ سأتزوج بمن أحب يا عمتى ، ويمكنك أن توصى بمالك لمن تريدين .

قالت :

ـ أنت غبية متعجرفة ! أهكذا تقابلين نصيحتى يا آنسة ؟ سوف تندمين يوم تجربين فشل الحب فى بيت يظلله الفقر والحرمان .

أجابت ميج :

ـ لن يكون حالى أشقى من حال بعض سكان القصور .

ولم تكن العمة قد رأت ميج فى مثل هذه الحالة من قبل ، فوضعت

عويناتها على أنفها ، وتطلعت إلى الفتاة تفحصها . وأثار حديث العمة روح التحدى فى نفس الفتاة ، فأحست بالشجاعة والاستقلال يغمران قلبها ، كما سرها أن تدافع عن چون ، وتثبت حقها فى حبه أو الزواج منه . وشعرت العمة مارش بأنها أخطأت فى معالجة الموضوع ، فسكتت لحظة ثم استأنفت حملتها بأسلوب آخر توخت فيه اللين على قدر استطاعتها . قالت :

— ميج ، أيتها العزيزة ! كونى عاقلة وخذى بنصحى ، فأنا أريد لك الخير ، ويؤلمنى أن تفسدى حياتك بخطأ ترتكبينه فى بدايتها . يجب أن تتزوجى رجلا غنيًّا ، حتى تجدى الراحة وتعاونى أسرتك .

قالت :

— ولكن أمى وأبى يخالفانك فى الرأى ، وهما معجبان بچون رغم فقره .

قالت العمة :

— إن أمك وأباك لا يدركان من أمور الدنيا أكثر مما يدرك الأطفال السذج .

قالت ميج فى كبرياء :

— وأنا سعيدة بذلك .

ولم تهتم العمة مارش بإجابة الفتاة ، ومضت فى نصيحتها تقول :

— إن هذا الشاب روك فقير ، وليس له أقارب أغنياء .

قالت الفتاة :

— نعم ليس له أقارب أغنياء ، ولكن له أصدقاء مخلصين .

قالت العمة :

ــ لن تجدى من الأصدقاء عوناً على معاشك ، وسينكرونك يوم تحتاجين إليهم . ألهذا الشاب عمل يتكسب منه ؟

قالت :

ــ ليس له عمل فى الوقت الحاضر ، ولكن مستر لورنس وعد بمساعدته

قالت :

ــ إن چيمس لورنس عجوز متقلب لا يؤمن له جانب ، فلا تعتمدى على مساعدته طويلا ، واعتبرى أنك تتزوجين رجلا بلا مال ولا جاه ولا عمل ، مما يضاعف كدك فى الحياة ، وكل هذا لأنك لا تأخذين بنصيحتى . ظننتك أرجح عقلا وأعمق تفكيراً يا ميج .

قالت ميج ، وقد زادها الإخلاص تورداً وجمالا :

ــ لن أجد أفضل منه زوجاً مهما فعلت ، فچون رجل طيب القلب ، راجح الفكر ، له مواهب لا تحصى ولا تعد . إنه يبحث عن العمل جاداً وسوف يوفق دون شك بفضل نشاطه وذكائه وشجاعته . وهو فوق ذلك محبوب ، يجله الناس ويحترمونه ، ومن حسن حظى أن يهتم بى رغم فقرى وحماقتى وصغر سنى .

قالت العمة :

ــ ولكنه يعرف أن لك أقارب أغنياء ، وهذا سر اهتمامه بك على ما أعتقد .

وكان رأى العجوز اتهاماً ظالماً لجون ، فثار غضب الفتاة ، وصاحت بعمتها تقول :

ـ كيف تجرئين أيتها العمة على مثل هذا الكلام ؟ ! ليس رجلى جون خسيساً أو وضيعاً ليتزوجنى من أجل المال . إن الفقر لا يخيفنى ، وسوف نعمل لنعيش ، وفى نيتنا أن ننتظر حتى تتحسن أحواله . يكفى أننى سعيدة ، وسأكون معه سعيدة دائماً ، لأنه يحبنى ولأنى . . .

وسكتت ميج ، وقد تذكرت فجأة أنها لم تقرر بعد قبوله زوجاً لها ، وأنها طلبت إلى « رجلها جون » عدم التفكير فيها ، وربما كان فى الغرفة المجاورة يستمع إلى حديثها .

وكانت العمة تريد أن تختار زوجاً غنيًّا لابنة أخيها المليحة ، فلما رأت سعادتها بجون الفقير ، ولمست حماستها البالغة فى الدفاع عنه ، غضبت لخيبة أملها ، وقالت بمرارة وغيظ :

ـ أنت فتاة عنيدة ، وقد خسرت بحماقتك أكثر مما تتصورين ، فلا تتوقعى معونة منى بعد أن خيبت أملى فيك ، وسنرى كيف يساعدك أصدقاء هذا المستر بوك . لقد انتهيت من أمرك تماماً ، ولن أتدخل فى شئونك بعد اليوم ، ولست أجد بنفسى رغبة فى رؤية أبيك .

وخرجت العجوز غاضبة بعد أن صكت الباب فى وجه ميج ، فانهارت بخروجها قوى الفتاة ، واستبدت بها الحيرة ، فلم تعد تدرى أتضحك أم تبكى . وقبل أن تتمالك جأشها ، دخل عليها مستر بروك ، وقال لها وهو

يحتويها بين ذراعيه :

ـ لم يكن هناك سبيل لاتحاشى سماع ما قلت يا ميج ، فشكراً لدفاعك عنى ، وشكراً للعمة مارش ، إذ بفضلها عرفت أنك تهتمين بى بعض الاهتمام .

قالت :

ـ لم أكن أقدر حقيقة مكانتك عندى ، حتى شرعت تذمك أمامى .

قال :

ـ لست أرى الآن داعياً لأن أتركك يا عزيزتى ، فهل تحبين أن أبقى وأسعدك ؟

وكانت هذه فرصة أخرى تستطيع فيها أن ترده عنها بكبرياء ، كما وعدت چو ، ولكنها بدل أن تفعل ذلك ، أخفت وجهها فى صدره ، وقالت بصوت خفيض :

ـ نعم يا چون !

وبعد ربع ساعة من انصراف العمة مارش ، هبطت چو السلم فى هدوء ، وتوقفت لحظة عند باب غرفة الاستقبال . فلما لم تسمع صوتاً ينبعث منها ، بدا عليها الارتياح وقالت لنفسها :

ـ لا شك أنها أرسلته إلى حال سبيله كما اتفقنا ، وبذلك يكون أمره قد انتهى ، فلأدخل لأتسلى وأضحك مما حدث بينهما .

ولكن چو لم تنعم قليلا أو كثيراً بالتسلية أو الضحك ، فعند ما

فتحت الباب ، رأت ما جعلها تقف فى مكانها مندهشة منذهلة ، لا تصدق عينيها ، فبدل أن تجد آثار هزيمة عدوها المبين على يدى أختها المتكبرة المتعالية ، طالعها منظر تلك الأخت ، وقد جلست على ركبتى من كانت چو تود له الخذلان كل الخذلان . وصدمت الفتاة بما شهدته فى وجه أختها من أبلغ معانى السعادة والاستسلام ، فشهقت منزعجة ، كما لو كان ماء مثلج صب على رأسها . وتنبه الحبيبان إلى وجودها ، فقفزت ميج عن ركبتى چون فى خجل شديد ، ولكن « ذلك الرجل » على حد تعبير چو ، تقدم إليها ضاحكاً وهو يقول :

ـ أختى چو ! هنئينا يا أختاه ! !

واغتاظت چو لكلامه ، بعد أن اغتاظت لخيبة أملها ، ووجدت فى قوله وقاحة لا تغتفر ، فلوحت له بيدها فى خشونة ، ثم خرجت من الحجرة دون أن تنطق بكلمة واحدة . وصعدت السلم مسرعة إلى غرفة الناقهين ، وأزعجتهما وهى تنفجر قائلة :

ـ فليسرع أحدكم بالنزول ؛ لأن مستر بروك يتصرف تصرفاً مخيفاً ، وميج راضية بذلك .

وعند ما خرج مستر مارش وزوجه من الغرفة مسرعين ، ارتمت چو على الفراش ، وفى عاصفة من البكاء ، جعلت تروى لأختيها الصغيرتين ما حدث ! ولكنهما قابلتا النبأ السار بكل ترحيب واغتباط ، فلم تنعم چو الغاضبة بشىء من راحة البال ، ولذلك لاذت بملجئها فى أعلى الدار ،

وراحت تقص همومها على الفيران التى تعبث حولها .

وأغلق باب غرفة الاستقبال على الوالدين والحبيبين ، ودار بينهم حديث طويل ، أبدى فيه بروك الهادئ منتهى الحماسة والبلاغة ، ودافع عن قضيته خير دفاع ، حتى اقتنع مستر مارش وزوجه بتحقيق رغباته .

وظل بروك يصف الجنة التى يريد تقديمها لميج ، حتى حان موعد الشاى ، فتأبط ذراعها باعتزاز ، وسار بها إلى المائدة والسعادة تشع من عينيهما ، إلى حد هزم غيرة چو ، وقهر اعتراضاتها . وتأثرت آمى بعطف چون وتحفظ ميج ، وراحت بث تختلس إليهما النظرات مسرورة ، أما مستر ومسز مارش فقد جلسا ينظران إلى الخطيبين برضا وحنان ، مما أثبت قول العمة مارش إنهما لا يفقهان من أمور الدنيا أكثر مما يفقه الأطفال . ولم يقبل أحد على تناول الطعام ، ولكن السعادة كانت تغمر القلوب كلها خصوصاً قلب الأب العجوز ، الذى بلغ غاية سعادته بأول حادث عاطفى فى أسرته .

قالت آمى وهى تفحص الحبيبين ، وتفكر فى الوضع الذى سترسمهما فيه :

ــ أما زلت عند قولك السابق يا ميج بأن لا مكان لمزيد من السعادة ؟

أجابت ميج ، وكأنها فى حلم سعيد يرتفع بها فوق الأحداث العادية :

ــ لا ، طبعاً . فكم حدثت أمور سعيدة ، بين أمس واليوم ، ويخيل إلى أن عاماً مضى منذ ذلك الحين .

قالت مسز مارش :

ــ إن بعد العسر يسراً ، والسعادة تأتى بعد طول الألم ، وفى كل أسرة

تمر سنوات يغشاها الحزن ، ثم تنقشع الغمة ، وتتحسن الأحوال ، وأظن أن هذا التغير قد بدأ الآن فى حياتنا .

وتمتمت چو تقول :

ـ أملى أن تكون نهاية هذا العام الجديد خيراً من بدايته .

وكانت چو لا تسرف فى حبها إلا مع أفراد معدودين ، فكانت تخشى أن تصدم فى إخلاصهم لها ، ولذلك آلمها كل الألم أن ترى ميج تنزلق من بين يديها ، وتتجه بعواطفها نحو رجل غريب تحت سمعها وبصرها .

قال مستر بروك وهو يبتسم لميج ، كأنما تحققت مشروعاتها كلها :

ـ وستكون نهاية العام الثالث أجمل وأجمل ، وستتحقق بإذن الله مشروعاتى وآمالى .

قالت آمى ، وهى تتعجل الأيام لحفل الزواج :

ـ أليست هذه مدة طويلة ؟

قالت ميج بلهجة جدية حلوة ، لم يسبق أن تحدثت بها من قبل :

ـ بل إنها مدة قصيرة جداً ، فما زال أمامى كثير أتعلمه .

قال پون :

ـ أنا أعمل وأنت تنتظرين .

وبدأ يعمل لفوره ، فتناول المنشفة وقدمها لميج بأناقة اغتاظت لها چو ولم تمض لحظة حتى سمع صوت الباب الخارجى يصفق ، فشاع الارتياح

فى نفس چو ، وهزت رأسها وهى تقول لنفسها :

ــ ها قد جاء لورى ، وآن الأوان لنسمع حديثاً ليس فيه شىء من هذه السخافات .

ولكن لورى خيب ظنها هو الآخر ، إذ دخل يقفز وقد استخفه الطرب ، وجاء يحمل باقة جميلة من الورود إلى « مسز چون بروك » .

وكان يعتقد أن كل هذه الأحداث ، ما جاءت إلا نتيجة لخطته الماهرة السابقة . قال بعد أن هنأ الخطيبين وقدم لهما هديته :

ــ كنت واثقاً أن بروك سينال ما يريد ، فهذا شأنه دائماً ، فهو إذا ما انتوى أمراً ، نفذه ولو انطبقت السماء على الأرض .

قال مستر بروك ، وقد بعثت نشوة السعادة فيه روح المسالمة ، حتى نحو تلميذه الماكر :

ــ شكراً على تهنئتك . إنى أستبشر خيراً بالمستقبل ، ولذلك أدعوك إلى حفلة زواجى منذ الآن .

قال :

ــ سألبى الدعوة ولو كنت فى أقاصى الأرض ، فإن مجرد رؤية وجه چو ، فى هذه المناسبة ، يغرى الإنسان بالحضور مهما طال السفر .

والتفت لورى إلى چو ، وهى تقبع فى ركن بعيد من الحجرة ، وسألها :

ــ ماذا بك ؟

قالت فى حزن :

ـ إنى غير موافقة على هذا الزواج ، ولكنى سأحتمله ولن أعترض عليه . إنك لا تدرك كم يشق علىّ أن أتنازل عن ميج .

قال لورى يواسيها :

ـ لن تتنازلى إلا عن نصفها ، وسيبقى لك النصف الآخر .

تنهدت چو وقالت :

ـ بل أنا فقدت صديقة عزيزة ، وسيختلف شعورها نحوى بهذا الزواج .

قال وهو يعنى ما يقول :

ـ ولكنى معك يا چو ، وإذا كنت لا أضارع ميج مكانةً فى نفسك ، غير أنى سأقف إلى جانبك طول حياتى ، ولك منى عهد بذلك .

قالت ، وهى تصافحه شاكرة :

ـ أنت عزائى الوحيد يا تيدى ، وأنا أثق بوعدك ، وسأكون مدينة لك إلى الأبد .

قال :

ـ لا تحزنى إذاً ، وكونى فتاة طيبة . إن الأمور تسير على ما يرام ، وميج سعيدة جداً ، ولن يلبث بروك أن يسافر للبحث عن عمل ، وقد وعد جدى بمساعدته فى تقرير مستقبله ، وعندئذ ترين ميج فى بيتها الصغير . لن تنقص سعادتنا بذهابها ، فعن قريب أنتهى من دراستى الجامعية ، وأسافر معك فى رحلة إلى الخارج . ألا تجدين فى ذلك تعزية كافية؟

قالت وهى شاردة الفكر :

ــ أعتقد ذلك ! ولكن من يدرى ماذا يحدث فى خلال هذه السنوات الثلاث القادمة ! ؟

قال لورى :

ــ الحق معك . ولكن ألا تحبين أن تتصورى ما قد يحدث إذ ذاك ؟

قالت وهى تجيل بصرها فى الحجرة ، وقد التمعت عيناها :

ــ لا ، فقد أتصور ما لا يسرنى . وما دمنا الآن سعداء ، فلا فائدة من التطلع إلى المستقبل .

وجلس الأب والأم معاً ، يرقبان أول فصل غرامى فى تاريخ بناتهما ، ويذكران أيامهما الماضية منذ عشرين عاماً . وعكفت آمى على لوحة ترسم فيها الحبيبين اللذين جلسا فى ركن من الحجرة ، يرفلان فى حلل من السعادة ، وقد أشرق وجهاهما بنور استعصى على الفتاة الصغيرة أن تصوره ورقدت بث على أريكتها تتحدث إلى أبيها العزيز ، وتشد على يده بيدها النحيلة ، كأنها تستمد منها قوة ترشدها إلى طريق السعادة والسلام . وقبعت چو فى مقعدها المنخفض المحبوب ، وفى وجهها مظاهر الجد والهدوء على حين وقف لورى وراءها وهو يبتسم فى أخوة ، ويومئ برأسه مشجعاً لصورتها المنعكسة على المرآة المقابلة .

وبهذا الوضع انسدل الستار على ميج وچو وبث وآمى ، ليرتفع مرة أخرى فى الجزء التالى من قصة نساء صغيرات .

DATE DUE

السعيد، امينة
نساء صغيرات
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01030700